**فقــــــه اللغة وعلم اللغــــــــة**

شاع في الدّراسات اللّغويّة الـحديثة مصطلحان هـما: (علم اللّغة) و (فقه اللّغة)، فاسم علــــم اللّغة عند الغربيين (Linguistic)، أي: العلم الـمختصّ بالكلام أو اللّغة، واسم فقه اللّغة عندهـم هـــــــو: (Philology)، ويعنــــي لفظ Philo) (: الصّديق، و(Logos): الـخطبة أو الكلام، فكأنّ واضع التّسمية لاحظ أنّ فقه اللّغة يقوم على حبّ الكلام للتّعمّق فــــي دراسته من حيث قواعده وأصوله وتواريـخه. وكان اللّغويّون العرب القدامى قــــد صنّفوا فـــــي فقـــه اللّغــة العربيّة، واتّسمت مصنفاتـهم بالدّقة والاستيعاب لـخصائص العربيّة وموادّها وموضوعاتـها.

**وانقسمت مصنّفات القدامى فـي فقه اللّغة العربيّة على قسمين:**

قســــــم يضم مـجموعة مِـن مباحث فقه اللّغــة فـــي كتاب، وآخر يتناول مبحثًا واحدًا فحسـب. ولعلّ لفظة (فقه اللّغة) كانت شائعة في مؤلّفات العلماء في القرنين الرّابع والـخامس للهجرة، فأوّل ظهور لـمصطلح فقه اللّغة كان عند أحمد بن فارس -المتوفّى سنة395للهجرة- فـــــــــي كتابـه: (الصّاحبيّ في فقه اللّغة وسنن العرب فــــــي كلامها)**،** أهداه إلـــــــــــــــــى تلميذه اللّغوي الأديب الصّاحب بن عبّاد -المتوفّى سنة385للهجرة-**؛** لذلك سمّاه الصّاحبيّ**،** وقــد ضمّنه كثيرًا مـن موضوعات فقــه اللّغة مثل: نشـــأة اللّغة العربية، ولهجات العــــــرب،وخصائص العربيّة، والقياس، والاشتقاق، وأثر الإسلام في اللّغة، مشيرًا إلى الـمعنى اللّغويّ والشّرعيّ، فضلًا عن موضوعات أُخرى كالـمترادف، وحروف الـهجاء، وحروف الـمعاني**.**

وقد ضمّن ابن فارس كتابه الصّاحبيّ نظريته التي ابتدعها في النّحت، فهو يرى أنّ الألفاظ التي تزيد حروفها على ثلاثة أكثرها منحوت مِن لفظين، فـ(الصِّلْدم)**،** أي: الشّديد الـحافر من الـحيوان، مأخوذ في رأيه من (الصَّلْد) و (الصَّدْم).

ثم ظهر مصطلح فقه اللّغة عندأبي منصور الثّعالبيّ -المتوفّى سنة429 للهجرة- فـــــــــي كتابه (فقه اللّغة وسرّ العربية)، وليس الكتاب كلّه في فقه اللّغة، بل القسم الثّاني منه فحسب، وهو الذي سـمّاه (سرّ العربية). أمّا القسم الأوّل منه فهو معجم للمعاني، يبيّن فيه معنى عامًا، ثـم يذكر تـحته ما يتعلّق به من مفردات اللّغة. وعُني القسم الثّاني مِن الكتاب بفقه اللّغة وقضايا بلاغيـة ونـحويـة، فمِــــن مباحثه اللّغوية الـمتّصلة بفقــــه اللغــــة كلامــه علــــى الإبـــــدال، والقلب الـمكانيّ، والأضــــداد، والنّــــحت، والإتبــاع، والـمشــترك اللّفظـــيّ الـــذي سـمّــــاه (وقوع اسم واحد على أشياء مختلفة).

وثـمّة كتب تضمّنت مباحث فــــي فقه اللغة، أو عالـجت شيئًا منه لكنّ عنوانـها خلا من مصطلح فقه اللغة، ككتاب الـخصائصلابن جني -المتوفّى سنة392للهجرة- فمـن مباحث فقه اللغة فيه: القول على اللّغة وما هي، والقول علــى أصل اللغة أإلـهام هي أم اصطلاح؟ وما قِيس علــــــى كلام العرب، والفصيح يـجتمع فــــي كلامه لغتان فصاعدًا، وما يرد عن العربـيّ مـخالفــــًا لـما عليــــه الـجمهور، وتــداخل اللّغات، واختلاف اللّغات، والاشتقاق الأكبــر، ومطل الـحركات، ومطل الـحروف، وحذف الـهمزة وإبدالـها، وغير ذلك.

ويعدّ كتاب (الـمخصّص) لابن سيده الأندلسيّ -المتوفّى سنة458للهجرة-، وهو معجم من معجمات الـمعاني من الكتب التي تضمّنت بـحوثًا في فقه اللّغة كالاشتراك، والتّرادف، والاشتقاق، والتّعريب، والإتباع اللّفظيّ، والقصر والـمدّ، وغير ذلك.

وتناول كتاب (الـمزهر في علوم اللّغة وأنواعها ) لـجلال الدّين السّيوطيّ -المتوفى سنة911 للهجرة- مباحث كثيرة في فقه اللّغة، نذكر منها: نشأة اللّغة، والغريب، والـحوشي، ولغات العرب، والـمستعمل والـمهمل من كلامهم، وتداخل اللّغات وتوافقها، والـمعرّب والدّخيل ، والإبـــدال، والاشـــتقاق، والـمشــترك، والتّرادف، والأضداد، والإتباع، والقلب الـمكانيّ**.**

وتوجــد غيــــر الـخصائص والـمخصّص والـمزهر كتب كثيرة تضمّنت مباحث فــي فقــه اللّغة.

خلاصة القول أنّ أبرز الكتب التي عنيت بفقه اللّغة هذه الـخمسة، اثنان منها حـمل مصطلح فقه اللّغة، وهـما الصّاحبيّ لابن فارس وفقه اللّغة وسرّ العربيّة للثّعالبيّ، وثلاثة لـم تـحمل مصطلح فقه اللّغة، وهي الـخصائص لابن جنّي، والـمخصّص لابن سيده، والـمزهر للسّيوطيّ.

وأمّا الكتب القديـمة التي اختصّت ببحث واحد من مباحث فقه اللّغة فهي كثيرة جدًّا، سنذكر أمثلة لـها دون استقصائها:

فمــن الكتب التــي عُنِيت بالألفاظ الإسلاميّة كتـــــــــاب (الزِّينة في الألفاظ الإسلاميّة العربيّة)لأبـي حاتـم الرّازيّ -المتوفّى سنة322للهجرة-.

ومِـــن كتب الـمشترك اللّفظيّ كتاب (الأجناس من كلام العرب وما اشتبه في الألفاظ واختلف في الـمعنى) لأبي عبيد القاسم بن سلّام -المتوفّى سنة224للهجرة-، وكتاب (ما اتّفق لفظه واختلف معناه) لإبراهيم اليزيديّ -المتوفّى سنة225للهجرة-، وكتاب (ما اتّفق لفظه واختلف معناه) لأبي العميثل -المتوفّى سنة240للهجرة-، وكتاب (ما اتّفق لفظه واختلف معناه من القرآن الـمجيد) للمبرد -المتوفّى سنة285للهجرة-، وكتاب(الـمنجَّد في اللّغة) لكُراع النَّمل الـهُنائيّ –الـمتوفّى سنة310للهجرة-.

ومن كتب الأضداد كتاب (الأضداد) لقُطْرُب –الـمتوفّى سنة206للهجرة-، وكتاب (الأضداد) للأصمعيّ -المتوفّى سنة216للهجرة-، وكتاب (الأضداد) للتَّوّزيّ -المتوفّى سنة233للهجرة-، وكتاب (الأضداد) لابن السِّكِّيت -المتوفّى سنة244للهجرة-، وكتـــاب (الأضداد) لأبي حاتـم السّجستانيّ -المتوفّى سنة255للهجرة-، وكتـــاب (الأضداد) لأبي بكر بن الأنباريّ -المتوفّى سنة328للهجرة-، وكتاب(الأضداد مِن كلام العرب) لأبي الطّيب اللّغويّ -المتوفّى سنة351للهجرة-.

ومن كتب التّرادف كتـــاب (ما اختلف ألفاظه واتّفقت معانيه**)** للأصمعي، وكتـــــــاب (الألفاظ) لابن السِّكِّيت، وكتـاب (الألفاظ الكتابيّة) لعبـــد الرّحـمـن الـهمدانـيّ -المتوفّى ســــنة320للهجرة-، وكتـاب (جواهر الألفاظ) لقُدامة بن جعفر -المتوفّى سنة337للهجرة-، والألفاظ الـمتقاربة الـمعنى للرّمّانيّ-المتوفّى سنة384للهجرة-. وألّف أبو هلال العسـكريّ -المتوفّى سنة395للهجرة- كتاب (الفروق اللّغويّة) عرض فيه الفروق الدّقيقة في اللّفظين اللّذين يُظنّ أنـّهما مِن التّرادف.

ومن كتب الاشتقاق كتاب **(**الاشتقاق**)** لابن دريد -المتوفّى سنة321للهجرة-، وكتاب **(**الاشتقاق**)** لابن السّرّاج -المتوفّى سنة316للهجرة-.

ومن كتب التّعريب كتاب **(**الـمعرّب**)** لأبي منصور الـجواليقيّ -المتوفّى سنة539للهجرة-، وكتــاب **(**الـمهذّب في ما وقع في القرآن من الـمعرّب**)** للسّيوطيّ، وكتاب (شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدّخيل) لشهاب الدّين الخفاجيّ -المتوفّى سنة1069للهجرة-.

ومن كتب الإتباع اللّفظيّ كتاب (الإتباع) لأبي الطّيب اللّغويّ، وكتاب (الإتباع والـمزاوجة) لابن فارس.

ومن كتب الإبدال كتاب **(**الإبدال**)** لابن السِّكِّيت، وكتاب **(**الإبدال**)** لأبي الطّيب اللّغويّ.

ومن كتب اللّغات كتاب **(**اللّغات) رواية ابن حسنون الـمقرئ عـن ابن عبّاس.

ومن كــتب اللّحن والتّصحيح اللّغويّ كتاب **(**ما تلحن فيه العامّة**)** للكسائي -المتوفّى سنة189للهجرة-، وكتـاب **(**لـحــن العوام**)** لأبـي بـكر الزُّبيديّ -الـمتوفّـى سنـــة379للهجرة-، وكتـاب (دُرَّة الغَوَّاص في أوهام الـخواصّ**)** للحريريّ -المتوفّى سنة516للهجرة.

ومن كتب الـمُثَنَّى كتاب (المثنى) لأبي الطّيّب اللّغويّ، وكتاب (جنى الـجنّتين في تـمييز نوعي الـمثنّيين) للـمُحِبّـيّ -الـمتوفّـى سنـــة1111للهجرة-

ومن كتب الـمثلّث كتاب الـمُثلّث لقطرب، وكتاب الـمثلّث لابن السِّيد البَطَلْيَوْسيّ-الـمتوفّـى سنـــة521للهجرة-، وكتاب إكمال الإعلام بتثليث الكلام لابن مالك الـنّحويّ-الـمتوفّـى سنـــة672للهجرة-

ومن كتب الـمقصور والـممدود كتاب **(**الـمقصور والـممدود**)** لنفطويه -المتوفّى سنة323للهجرة، وكتاب **(**الـمقصور والـممدود**)** لأبي عمر الزّاهد المتوفّى سنة345للهجرة، **و(**الـمقصور والـممدود**)** لأبي عليّ القالي -المتوفّى سنة356للهجرة-.

ويطلق مصطلح فقه اللّغة عندنا الآن على العلم الذي يـحاول الكشف عن أسرار اللّغة؛ للوقوف على القوانين التي تسير عليها في حياتـها، ومعرفة سرّ تطوّرها، ودراسة ظواهرها الـمختلفة دراسة تاريـخية من جانب، ووصفيّة من جانب آخر، وهو بـهذا يضمّ كلّ الدّراسات اللّغويّة التي تبحث في نشأة اللّغة الإنسانيّة، واحتكاك اللّغات الـمختلفة بعضها ببعض، ونشأة اللّغة الفصحى واللّهجات، وكذلك تلك التي تبحث في أصوات اللّغة، ودلالة الألفاظ وبنيتها من النّواحي التاريـخيّة الـمقارنة، والنّواحي الوصفيّة، وكذلك العلاقات النّحويّة بين مفرداتـها.

وحين اكتشف العلمـاء أنّ اللّغات يـمكـن الـموازنة بينها نشأ فقــه اللّغــة الـمقارنComparative Philology، وقد انصبّ أكثر هذه الدّراسات الـمقارنة أولًا على اللّغات الـهنديّة-الأوربيّة، وهناك دراسات تتعلق باللّغات الرّومانسيّة الـمنبثقة عن اللاتينيّة كالفرنسيّة والإيطاليّة والإسبانيّة والبرتغاليّة والرّومانيّة.

وأمّـا علــم اللّغــة الــذي يُطلق عليــه أحيانًا علم اللّغــة العـامGeneral Linguistics فقد دخل الـجامعات العربيّة حديثًا، ويُعْنَى بدراسة اللّغة دراسة علميّة، ويقوم بدراسة اللّغة مِن الـجوانب الآتية:

أولًا: الأصواتPhonetics - Phonology

ثانيًا: بناء الكلمة (الصّرف)Morphology

ثالثًا: بناء الجملة (النّحو)Syntax , Grammar

رابعًا: الدلالة (علم الـمعنى)Semantics

والأساس النّظريّ لـهذا العلم هو أنّ اللّغة ظاهرة إنسانية تستعملها كلّ الـمجتمعات؛ لأداء وظائف مـحدّدة، وبناء هذه اللّغات يتألّف مِن أصوات تنتظم في كلمات، والكلمات تتألف منها جـمل، والبشر جـميعًا يستعملون لغاتـهم في التّعبير عن أفكارهم ورغباتـهم وتوصيلها إلى الآخرين.

ويسعى علم اللّغة العامّ إلى وضع نظرية في اللّغة، ونظرًا لـهذه الطّبيعة النّظريّة أَطْلق عليه بعض الباحثين تسمية (علم اللّغة النّظريّ)Theoretical Linguis ، ويعتمد علم اللّغة العامّ في وضع نظريته ومناهجه على ما تصل إليه علوم اللّغة الـمختلفة.

ويتصل علم اللّغة اتّصالًا وثيقًا بعلوم أخرى إنسانية كعلم الاجتماع والتاريخ والـجغرافيا، وعلوم صرفة كعلم وظائف الأصوات، وعلم وظائف الأعضاء، وعلم التّشريح، وعلم الوراثة. فعند دراسة اللّغة مِن النّاحية الصّوتيّة لا بدّ مِن الاستعانة بعلم وظائف الأعضاء الذي يقوم بدراسة أعضاء النّطق عند الإنسان، والاستعانة بعلم الفيزياء الذي يـحلّل الأمواج الصّوتيّة في الـهواء بين الـمتكلِّم والسَّامع.

ولـمّا كانت اللّغة لا تـحيا إلّا في ظلّ مـجتمع إنساني ظهر علم اللّغة الاجتماعيّ؛ لاتّصال علم اللّغة الوثيق بالعلوم الاجتماعيّة، ولـمّا كانت اللّغة سلوكًا إنسانيًا حدث امتزاج بين علم اللّغة وعلم النّفس فظهر علم اللّغة النّفسيّ.

ولا بدّ من التّنبيه على أنّه ليس مِن اليسير تـحديد الفروق الدّقيقة بين علم اللّغة وفقه اللّغة؛ لأنّ أغلب مباحثهما متداخل لدى كثير من العلماء، وكان اللّغويون القدامى لا يفرّقون بيـن فقه اللّغة وعلماللّغة؛ لأنّ اللّفظتين تعنيان -في مفهومهم- شيئًا واحدًا، فمعنى الفقه في معجمات الألفاظ هو: العلم بالشّيء والفهم له؛ مـمّا دعا بعض الباحثين إلى التّمسّك بـمصطلح فقه اللّغة وتعميمه على جـميع البحوث اللّغويّة؛ لأنّ كلّ علم بشيء فهو فقه له، فما أجدر هذه الدّراسات جـميعًا أنْ تُسَمّى فقهًا.

وتـميل الدّراسات اللّغوية الـحديثة بـمفهومها الـحديث إلى التّفريق بين فقه اللّغة وعلم اللّغة؛ لأنّ منهجيّة فقه اللّغة تـختلف عن منهجيّة علم اللّغة، فالأُولى تدرس اللّغة وسيلةً لدراسة الـحضارة أو الأدب مِن خلال اللّغة، في حين أنّ علم اللغة يدرس اللّغة لذاتـها.

وأنّ اصلاح فقه اللغة سبق مِن النّاحية الزّمانيّة اصلاح علم اللّغة، وأنّ فقه اللّغة يُوصف في الغالب بأنّه مقارن، في حين أنّ علم اللّغة لا يُعنى بـما حول اللّغة.

وأنّ ميدان فقه اللّغة أوسع وأشـمل إذ إنّ الغاية النّهائيّة منه دراسة الـحضارة والأدب، والبحث عن الـحياة العقليّة مِن جـميع وجوهها، لذلك عُنِيَ فقهاء اللّغة بتقسيم اللّغات ومقارنتها بعضها مع بعض، وبإعادة صياغة النّصوص القديـمة؛ لشرحها في سبيل الوقوف على ما تتضمّنه مِن مضامين حضاريّة بـمختلف وجوهها. أمّا علم اللغة فيركز على التحليل لتركيب اللّغة بوصفها ميدانه الأساس.

وأنّ علم اللغة اتصف منذ نشأته بكونه علمًا حسب الـمفهوم الدّقيق لـهذا الـمصطلح، وقد شدّد معظم علماء اللغة على هذه النّاحية.

**مذاهب ونظريّات نشأة اللّغة:**

**1- الوحي والإلهام (التّوقيف):**

يرى أصحاب هذا الـمذهب أنّ اللّغة توقيف أو وحي من عند الله تعالى، فهي ليست من وضع البشر، مـحتجّين بقوله تعالــى: ((وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْـمَاءَ كُلَّهَا))[البقرة31]، ومنهم أبو علـيّ الفارســيّ -المتوفّى سنة377للهجرة-، وابن فارس –المتوفّى سنة395للهجرة-، وابن جنّي -المتوفّى سنة392للهجرة- في أحد آرائه.

قـال ابن فـارس **:** "أَقُول إنّ لغة العــرب توقيف، ودليـــل ذلك قولـــه جـلَّ ثناؤه: ((وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْـمَاءَ كُلَّهَا))، فكان ابن عبّاس –المتوفّى سنة69للهجرة- يقول: عَلَّمه الأسـماء كلَّها، وهي هذه التي يتعارفها النّاس مِن دابّة، وأرض، وسهل، وجبل، وحـمار، وأشباه ذلك".

وقال ابن جنّي**:** في "(باب القول على أصل اللّغة أإلـهامٌ هي أم اصلاح) هذا موضوع مُـحْوِج إلى فضل تأمّل، غير أنّ أكثر أهل النّظر على أنّ أصل اللّغة إنّـما هو تواضع واصلاح، لا وحـي وتوقيف، إلّا أنّ أبا عليّ -رحـمه الله- [يعني أستاذه أبا علــي الفارســــــيّ] قال لي يومًا: هي من عند الله، واحتجّ بقوله سبحانه: ((وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْـمَاءَ كُلَّهَا)).

وذكر ابن جنّي في موضع آخر مِن كتابه **(**الـخصائص**)** أنّه قَوُيَ في نفسه اعتقاد كونـها توقيفًا من الله، وأَنّـها وحي.

ونَبَّه ابن فارس على أنّ التَّعبير عن الأسـماء، وهي أسـماء الأشياء، قد جرى بالضَّمير **(**هم**)**، وهو ضمير يُعَبَّر به في العربيّة عن العقلاء، وذلك كما يرى لا يقف حائلًا دون مذهبه فـــــي تفســير الآيـة علـــى الوحي والتَّوقيف حين قــال: **((**ثُـمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ**))،** ولـم يقل: **"(**ثـمّ عرضهُنَّ**)"**...؛ لأنّه جارٍ على أُسلوب العرب فـــــي التَّغليب، وذلك نظير قوله تعالى: ((وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ))[النّور45]، فغلّب الله سبحانه في الآيتين كلتيهما العاقل على غير العاقل عندما اجتمعا معًا فــي صفة واحدة وسياق واحد، فقال في الأولى **((**عَرَضَهُمْ**))** بدلًا مـن **(**عرضهُنّ**)** ، وفي الثَّانية **((**مِنْهُمْ**))** بدلًا من **(**منهُنّ**)**.

وثـمة خلاف في تفسير هذه الأسـماء، ولعل أشهرها ما ذهب إليه ابن عبّاس، وهو أنّ الله سبحانه تعالى علّم آدم أسـماء جـميع الأشياء، وذهب آخرون إلى أنه سبحانه وتعالى علّم آدم أسـماء الأشياء كلّها، ما خلق وما لـم يـخلق، بـجميع اللّغات التي يتكلّم بـها أولاده بعده، وذهب آخرون إلى أنّه سبحانه وتعالى علّم آدم أسـماء الـملائكة وأسـماء ذريّته، وذهب آخرون إلى أنه سبحانه وتعالى علّم آدم فوائد الأشياء التي حوله وخواصها، وهي أنّ الفرس يصلح لكذا، والـحمار يصلح لكذا ... .

وكان ابن جنّي قد أشار إلى أنَّ **((**عَلَّمَ آدَمَ**))** في الآية الكريـمة يـجوز أن تكون بـمعنى (ألـهمه)، قال في كتابه (الـخصائص): "يـجوز أنْ يكون تأويله: أَقْدَرَ آدم على أنْ واضع عليها...". وإلى مثل ذلك ذهب السّيوطي –المتوفّى سنة911للهجرة- إذ يقول: "لِـمَ لا يـجوز أنْ يكون الـمراد مِن تعلّم الأسماء الإلـهام إلى وضعها؟ ولِـمَ لا يجوز أنْ تكون هذه الألفاظ وضعها قوم آخرون قبل آدم، وعلّمها الله آدم؟".

واحتجّ القائلون بـمذهب التّوقيف بنص قرآنيّ آخر وهو قوله تعالى: ((مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ))[يوسف40]، فقالوا إنّ ذلك يقتضي كون بقية الأسـماء توقيفيّة، وهي تلك الأسـماء التي لـم يُسمّوها. ويرى السّيوطيّ أنّ الآية الكريـمة ليست دليلًا قويًّا للقائلين بـمذهب التّوقيف؛ لأنّ الله **"**ذمَّهم؛ لأنّـهم سـمُّوا الأصنامَ آلـهة واعتقدوها آلـهة**".** ومعنى ذلك: أنّه ليس الـمراد بــــ(سـمّى) في الآية وضع الأسـماء للآلـهة، وإنّـما الـمراد تسميتها آلـهة تعبد، والاعتقاد بأنّـها آلـهة.

واحتجّ القائلون بـمذهب التّوقيف بنصٍّ قرآنــيّ آخـر، وهــو قوله تعالى: ((وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ))[الرّوم22]، فقالوا إنّ الـمراد بالألسنة اللّغات، فرأوا أنّ اختلاف اللّغات مِن فعل الله ووحيه.

وذهب الـمعارضون لـمذهب التّوقيف إلى أنّ الآية الكريـمة ليس فيها دليل على التّوقيف، فربّـما يكون اختلاف الألسنة من التّواضع والاصطلاح.

**2- الاصطلاح أو المواضعة:**

يظهر من نصّ ابن جنّي الذي تقدّم ذكره أنّ أصحاب القول بـهذا الـمذهب أكثر مـن القائلين بالتَّوقيف، فقد ذكر **"**أنّ أكثر أهل النّظر علــى أنّ أصل اللّغة إنَّما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف**"،** فاللّغة على هذا الـمذهب نشأت مواضعة واتّفاقًا بين بني البشر، أي إنّ ارتـجال الألفاظ كان أساسًا في بناء اللّغة ونشأتـها، قال ابن جنّي : "ذهبوا إلى أنّ أصل اللّغة لا بدّ فيه من الـمواضعة، قالوا: وذلك كَأَن يـجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدًا، فيحتاجوا إلـــى الإبانة عن الأشياء الـمعلومات، فيضعوا لكلّ واحد منها سِـمَةً ولفظًا، إذا ذُكِر عُرِف به مُسَمَّاه؛ ليمتاز من غيره، وليُغْني بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين ... فكأنّـهم جاؤوا إلى واحد من بني آدم، فأومؤوا إليه، وقالوا : إنسان إنسان إنسان، فأيّ وقت سُـمِع هذا اللّفظ عُلِم أنَّ الـمراد بـــه هذا الضَّرب من الـمخلوق، وإنْ أرادوا سِـمَة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك، فقالوا: يد ، عين، رأس، قدم، أو نـحو ذلك. فمتى سُـمِعت اللَّفظة من هذا عُرِف معنِيها، وهَلُمّ جرًّا في ما سوى هذا من الأسماء، والأفعال، والـحروف...**".** وكان أبو عليّ الفارسيّ -المتوفّى سنة377للهجرة- من الآخذين بـهذا الـمذهب؛ ليجمع بين التَّوقيف والاصطلاح، ويكون بـهذا قد جـمع بين النَّقل والعقل. ويبدو أنّ ابن جنّي من القائلين بالـمواضعة والاصطلاح أيضًا، فهو ينقل ردّ أصحاب مذهب الاصطلاح لـمذهب التّوقيف حين **"**قالوا: والقديـم سبحانه لا يجوز أنْ يُوصف بأنْ يواضع أحدًا من عباده علـــى شيء؛ إذ قد ثبت أنّ الـمواضعة لا بدّ معها من إيـماء وإشارة بالـجارحة نحو الـمومأ إليه والـمشار نـحوه، والقديـم سبحانه لا جارحة له فيصحّ الإيـماء والإشارة بـها منه، فبطل عندهم أنْ تصحّ الـمواضعة على اللّغة منه -تقدّست أسماؤه-**".**

ولعلّ استحواذ الفكرة الدِّينيّة على ابن جنّي جعله أكثر ميلًا إلى الرَّأي القائل بالتّوقيف إذ صرّح بأنّه قَوُيَ في نفسه اعتقاد كونـها توقيفًا من الله.

ومـمّا وُجِّه لـهذا الـمذهب من نقد أنّ التّواضع على التَّسمية يتوقّف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بـها الـمتواضعون. فكيف نشأت هذه اللّغة الصّوتيّة؟ أي إنّ ما يـجعله أصحاب هذا الـمذهب منشأ اللّغة، يتوقّف هو نفسه على وجودها من قبل.

**3- محاكاة أصوات الطبيعة :**

يرى أصحاب هذا الـمذهب أنّ النَّشأة الأولى للألفاظ لا تعدو تقليد الأصوات التي في الطّبيعة كمواء القط، ونُباح الكلب، وحفيف الشَّجر، وحنين الرَّعد...أي إنّ أصوات الكلمة عند الإنسان القديـم كانت نتيجة تقليد مباشر لِـما حوله في الطّبيعة.

وكان اللّغويون العرب القدامى قد تنبّهوا على طائفة من الألفاظ التي سـميّت بأسـماء مأخوذة من أصواتـها نفسها، قال الـخليل -المتوفّى سنة175للهجرة-: "الصَّوْقَرير: حكاية صوت طائر يُصَوْقِرُ فــــــي صياحه، تسمع نـحو هذه النَّغمة في صوته" ، وقال ابن جنّي -المتوفّى سنة392للهجرة-: **"**وسـمّوا الغراب غاقِ؛ حكاية لصوته، والبَطَّ بَطًّا؛ حكايةً لأصواتـها".

وقد لـخّص ابن جنّي مذهب مـحاكاة أصوات الطّبيعة بقوله: "وذهب بعضهم إلى أنّ أصل اللّغات كلّها إنّـما هو من الأصوات الـمسموعات، كدويِّ الرِّيح، وحنين الرَّعد ، وخرير الـماء، وشَحِيج الـحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونَزيب الظّبي[[1]](#footnote-1)، ونـحو ذلك"، ولـم يستبعد ابن جنّي هذا الـمذهب، بل رآه مقبولًا فقال معلقًا عليه: "وهذا عنـدي وجه صالـح ومذهبٌ مُتَقَبَّل"، وهذا هو الرّأي الثّالث له في نشأة اللّغة.

وسـميّت هذه النّظرية عند غير العرب باسم نظرية (البو-ووBow waw )، أي: مـحاكاة أصوات الطّبيعة، فقد بادر بعض العلماء إلى وضع هذه النّظريّة بعد ورود كلمات يدلّ لفظها على معناها كالرّنين، والغُنّة، والزّقزقة، والقهقهة، والـحفيف، والـخرير، والـخَشْخَشَة، والطَّقْطَقَة...

وهناك أمثلة تعضد صدق هذه النّظريّة، منها لفظ (cuckoo)، وهو اسم طائر سُـمّي بالصّوت الذي يُـحْدِثه.

وتبين نظريّة الـمحاكاة تأثّر الإنسان بالبيئة التي تـحيط به، فهو يستمدّ ألفاظه التي شرع ينطق بـها لأوّل مرّة مـمّا حوله فتراه مقلّدًا ومـحاكيًا.

ويرى الطّاعنون في هذه النّظريّة أنّـها تقف بالفكر الإنسانيّ عند حدود حظائر الـحيوانات، وتـجعل اللّغة الإنسانيّة الرّاقية مقصورة النّشأة على تلك الأصوات الصّادرة عن الطّبيعة.

ويرى الطّاعنون في هذه النّظرية أيضًا أنّ الكلمات التي يـمكن أنْ تُفَسَّر على (البو-ووBow waw ) قليلة جدًّا، فضلًا عن وجود آلاف الكلمات التي ليس هناك علاقة بين معناها وصوتـها.

ويـجيب أصحاب (البو-ووBow waw ) عن هذا الاعتراض الأخير بأنَّه من الـممكن أنّ تكون النَّشأة الأولى للّغة بـمحاكاة أصوات الطّبيعة، ثـمّ تغيّرت الدّلالات بعد ذلك بـحكم التّطور اللّغويّ عبر العصور والأجيال حتّى انتهت إلى دلالات أخرى حسيّة أو معنوية ذات وشيجة بالدّلالة الأولى أو مبتعدة عنها.

**4- نظرية الاستعداد الفطريّ:**

جاء بـها اللّغوي الألـماني موكس مولر وسـمّاها نظرية (Ding Dong)، وخلاصتها أنّ الإنسان مزوّد بفطرته بالقدرة على صوغ الألفاظ الكاملة، وهو مطبوع على الرّغبة في التّعبير عن أغراضه بأية وسيلة من الوسائل، غير أنّ القدرة على النّطق بالألفاظ لا تظهر آثارها إلّا عند الـحاجة أو في الوقت الـمناسب.

ويريد موكس مولر بتسمية (Ding Dong) أنّ يُشَبِّه حوادث الزَّمن ببندول السَّاعة الذي يتحرّك، فيُخْرِج بتحرّكه القوة الكامنة في السَّاعة التي ينطوي عليها اللَّولب، فكأنّ النَّفس البشريّة مـخزن مـمتلئ بالألفاظ، ينفتح شيئًا فشيئًا بـمفتاح الزّمن ومقتضيات الـحياة الواقعيّة.

ولعل الذي دعا موكس مولر إلى وضع هذه النّظرية ملاحظة الأطفال في حياتـهم اليوميّة حين يضعون أسـماءً للأشياء التي يرونـها ولا يعرفون لـها أسـماءً، فهم يبتكرون أسـماءً لـم يسمعوا بـها مِن قبل؛ إرضاءً لرغبتهم الفطريّة في الكلام والتّعبير عن أغراضهم. فاستنبط مِن ملاحظته أنّ الإنسان مزوّد بتلك القوّة التي تنشأ عنها الألفاظ .

واعترض الـمعترضون على هذه النّظرية بقولهم: متى زُوِّد الإنسان بـهذه الذَّخيرة اللّغويّة؟ وكيف انطوت نفسه على تلك الألفاظ الكاملة؟ وإذا كان قد زُوِّد بفطرته بـهذه الألفاظ، فِلمَ اختلفت اللّغات وتعدّدت اللّهجات؟

ويُلْحظ أنّ هذه النّظريّة تفترض ظهور الكلمات الأولى لدى الإنسان كاملة غير خاضعة لسُنَّة التّطور.

**5- نظرية التّنفيس عن النّفس:**

يشير أصحاب هذه النّظريّة إلى أنّ مرحلة الألفاظ كانت قد سبقتها مرحلة الأصوات السّاذجة التّلقائيّة الانبعاثـيّة التي صدرت عن الإنسان للتّعبير عن ألـمه، أو سروره، أو رضاه، أو نفوره.

وتُسَمَّى هذه النَّظريّة أيضًا بنظرية الأصوات التَّعجبيّة العاطفيّة، وتُدْعى أيضًا نظرية الـــــ(pooh pooh)، فما الأصوات الأولى التي نطق بـها الإنسان إلّا أصوات تعجبيّة عاطفيّة صدرت عن دهشة، أو فرح، أو وجع، أو حزن، أو استغراب، أو تقزّز، أو تأفّف.

وتعزو هذه النّظريّة نشأة اللّغة الإنسانيّة إلى أمر ذاتيّ، فهي تعتدّ بالشُّعور الوجدانيّ الإنساني؛ لأنّ بالإنسان حاجة إلى التَّعبير عـمّا يـجيش بصدره من أحاسيس وانفعالات.

ويرى الطّاعنون في هذه النّظريّة أنـّها لا تبيّن منشأ الكلمات الكثيرة التي لا يـمكن رَدُّها إلى أصوات انفعاليّة، ولا تبيّن كيفية تـحوّل تلك الأصوات الانفعاليّة السّاذجة إلى ألفاظ.

**6- نظريّة الاستجابة الصّوتيّة للحركات العضليّة أو نظرية (yo – he – ho):**

يذهب أصحاب هذه النّظرية إلى أنّ منشأ اللّغة كان في البدء أصواتًا عفويّة صدرت عن الإنسان عندما مارس عملًا عضليًّا، فتفوَّه بـمقاطع صوتيّة رافقت الـجهد الـمبذول؛ لتخفيف حدَّة ذلك الـجهد، وهو عمل لا إراديّ يقوم به الإنسان في كثير من أعماله اليوميّة لا سيما التي تتطلّب جهدًا مكثَّفًا، كالذي يبذله الملّاحون في السّفن الشِّراعية، أو الصَّيَّادون في إنزال السفن إلى الماء وجرِّ الشِّباك، أو الذين يـنقلون صخورًا ضخمة، أو أيّ عمل جـماعي يرتبط برفع الأحـمال أو الرّقص...

وتكون الـمقاطع الصّوتيّة أو الألفاظ التي يطلقها هؤلاء ذات دلالة واضحة، وربّـما لا تكون كذلك، لكنَّهم يـجدون راحة عند إطلاقها.

ويرى الـمؤمنون بـهذه النَّظرية أنّ تلك الـمقاطع الصّوتيّة، أو الألفاظ لا تلبث أنْ ترتبط من حيث الدَّلالة بالعمل نفسه، فتدلّ عليه، وتـمثّل هذه الألفاظ -في رأيهم- النَّواة الأولى للّغات البشريّة.

والنّقد الـموجّه إلى هذه النّظريّة أنّـها لـم تفسّر إلّا جزءًا يسيرًا من اللّغة، ثـمّ كيف نشأت اللّغة كلّها من الاستجابة الصّوتيّة للحركات العضليّة؟ فما علاقة لفظ الأب، والأمّ، والـحنان، والـجمل، والـجمال... بالأصوات التي هي استجابة للحركات الـجسميّة؟

**7- نظريّة التّطور الفطريّ:**

يُشَبِّه الـمنادون بـهذه النّظريّة نشأة اللّغة الإنسانيّة بالنّموّ اللّغويّ عند الطّفل، وعليه فإنّ نشأة اللّغة مرّت بـمراحل فطريّة تساير مراحل النّموّ العقليّ لدى الإنسان، وهذه الـمراحل -كما يرون- هي:

1-مرحلة الأصوات السّاذجة الانبعاثــيّــة التي صدرت عن الإنسان في العصور الأولى، حين كانت أعضاء نطقه غير ناضجة، وميوله ورغباته غير مـحدودة.

ونظير هذه الـمرحلة عند الطّفل ما يصدر عنه -في أوّل عهده بالنّطق- من أصوات مبهمة لا يُفْهَم منها في كثير من الأحيان رغبة ولا غرض معين.

2-مرحلة الأصوات الـمُنْبِئة عن الأغراض والرَّغبات الـمصحوبة بالإشارات التي تساعد الأصوات مساعدة فطريّة في الإبانة عن الأغراض .

ونظير هذه الـمرحلة عند الطّفل -في أواخر السَّنة الأُولى من حياته- ما يصدر عنه من أصوات مصحوبة بإشارات مُنْبِئة عن أغراضه.

3-مرحلة الـمقاطع: وفيها انتقلت لغة الإنسان من أصوات غير مُـحَدَّدة الـمعالم إلى أصوات مُـحَدَّدة بصورة مقاطع قصيرة مستنبطة من أصوات الأشياء أو الظَّواهر الطَّبيعيّة.

ونظير هذه الـمرحلة عند الطّفل -في الشُّهور الأولى من السَّنة الثَّانية- ما يصدر عنه من مقاطع متكـرّرة يطلب بـها ما يريد أو يدلّ بـها على أشياء معيَّنة متأثِّـرًا في ذلك بـما يسمعه من مـحيطه، فكثير من الأطفال يطلقون في هذه السِّنّ (هَوْ هَوْ) على الكلب، و(تِكْ تِكْ) على السَّاعة.

4-مرحلة الكلمات: وفيها انتقلت لغة الإنسان من الـمقاطع الصّوتيّة القصيرة إلى الكلمات، وبـهذه الكلمات عَبَّر عن أغراضه ورغباته؛ لأنَّ عقله قد اكتمل، وأعضاءه الصَّوتيّة قد نضجت، فشرع يتفاهم مع غيره.

ونظير هذه الـمرحلة عند الطّفل ما يصدر عنه من كلمات يتفاهم بـها مع الـمحيطين به، وهكذا يتألَّف معجمه اللُّغويّ من الألفاظ الشَّائعة في بيئته، وهو اللَّازم للتَّعبير عن أغراضه.

5-مرحلة الوضع والاصطلاح**:** وهي آخر مرحلة من مراحل النّموّ اللّغويّ، وفيها يضع الإنسان الـمصطلحات العلميّة، ويبتكر الأسـماء الدَّالة على الـمُسَمَّيات الـمُسْتَحْدَثة، وما تزال اللّغة تنمو باطّراد ويزداد عدد مفرداتـها كلّما أَوْغَل الإنسان في التَّحضُّر، ولا شكَّ في أنَّ ذلك لن يقف عند حدٍّ معيّن.

ونظير هذه الـمرحلة عند الطِّفل تلك الـمرحلة التي يذهب فيها إلى الـمدرسة فيتعلّم العلوم والفنون والمصطلحات... **.**

**ظواهر لغويـّـة لها أثر فـي نـموّ العربيّة وثرائها واتّساعها:**

ثـمّة ظواهر لغوية في لغتنا العربيّة أثّرت تأثيرًا كبيرًا في لغتنا، فنجد اللّفظ الواحد صار حاملًا لـمعنيين أو أكثر، أو نـجد للمعنى العامّ أكثر من لفظ يدل عليه مع مائز الفروق الدّلاليّة الدّقيقة، وغير ذلك من الإثراءات التي نالت كلام العرب عن طريق ظواهر لغويّة كثيرة كانت فاعلة فيه كالألفاظ الإسلاميّة، والـمشترك اللّفظيّ، التّرادف، الأضداد، والاشتقاق، والتّعريب، والإتباع اللّفظيّ، والـمثنّى، وغيرها.

**\*- الألفاظ الإسلاميّة:**

هي ألفاظ أكسبها الدِّين الإسلاميّ معاني جديدة لـم يكن الـمجتمع الـجاهليّ يعرفها إلّا على غير هذه الوجوه مِن الـمعاني. وتـمثّل الألفاظ الإسلامية مظهرًا مهمًا من مظاهر التّطور الدّلاليّ في اللّغة العربيّة، فقد كان للقرآن الكريـم أثر عظيم في تغيير دلالة هذه الألفاظ إذ أضفى عليها دلالات لـم تكن مُتَداولة عند أهل الـجاهلية كالإيـمان، والكفر، والصّلاة، والـمنافق، والـماعون، والـحجّ، والصّيام، والتّيمّم، وغيرها.

وقد عُنِـي اللّغويّون القدامى بـمعاني هذه الألفاظ فبيّنوا الأصل الذي كانت عليه، ثـم وقفوا عند الـمعنى الذي آلت إليه في عهد الإسلام، كما صنع ابن قتيبة -المتوفّى سنة276للهجرة- فــي مواضع مـن كتبه (تفسيـــرغريب القرآن**)،** و**(**غريب الحديث**)،** و**(**تأويــل مشكل القرآن**)**، وكما صنـــع أبو بكر بن الأنباري المتوفّى سنة 328للهجرة- في مواضع من كتابه **(**الزاهر في معاني كلمات النّاس**)**، ومِن مظاهر هذه العناية أنْ أفردَ أبو حاتـم الرّازيّ -المتوفّى سنة322للهجرة-كتابًا خاصًّا بالألفاظ الإسلاميّة سـمّاه (الزِّينة في الألفاظ العربيّة الإسلاميّة)**.**

ولتمييز الـمعنى القديـم الذي عرفه العرب القدامى مِن الـمعنى الإسلاميّ رأى ابن فارس –المتوفّى سنة395للهجرة- أنْ يُسمّى الأوّل لغويًّا، والثّاني شرعيًّا، قال في كتابه الصّاحبي**:"**فالوجه في هذا إذا سُئِل الإنسان عنه أنْ يقول: في الصّلاة اسـمان: لغويّ وشرعيّ، ويَذْكر ما كانت العرب تعرفه، ثـمّ ما جاء الإسلام به**".**

وتعدّ لفظة (الـمنافق) من الألفاظ الإسلاميّة، قال ابن قتيبة: "النِّفاق فـي اللّغة مأخوذ من نافِقاء اليربوع، وهو جُحْر مِن جِحَرَتِه، يـخرج منه إذا أُخذ عليه الـجُحْر الذي دخل فيه، فيقال: قد نَفَقَ ونَافَقَ، شُبِّهَ بفعل اليربوع؛ لأنّه يدخل مِن باب ويـخرج مِن باب، وكذلك الـمنافق يدخل في الإسلام باللّفظ، ويـخرج منه بالعقد...والنِّفاق لفظ إسلاميّ لـم تكن العرب قبل الإسلام تعرفه".

وجـماع القول أنّ العلاقة بين الـمعنيين –اللّغوي والإسلامي– متأتّية مـن مشابـهة الـمنافق لليربوع في سلوكه، ووجه الشّبه بينهما الإيهام الذي يوقعانهِ في نفس مَن ينظر إليهما، وذلك بدخولـهما مِن باب وخروجهما مِن آخر، فلا يَعْرف مَن ينظر إلى فعلهما سوى الباب الذي دخلا منه، ويـجهل أمر الباب الآخر الذي أضمراه للخروج.

ومِن الألفاظ الإسلاميَة التي تـختصّص معناها بعد أنْ كان عامًا **(**التّيمّم**)،** قال تعالــى: **((**وَإِنْ كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَـجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ**))** [الـمائدة 6]، أي: اقصدوا الصّعيد الطّيّب، وكان التّيمم يُطْلَق أوّلاً على القصد مطلقًا، يقال: يَـمَّمْته إذا قصدته، وهكـذا تغيّرت دلالة الفعل **(**تيمم**)** مِن القصد مطلقًا إلى مسح الوجه واليدين بالتّراب؛ لأنّ الغرض مِن قصد التّراب التّمسّح به. ولـم تكن العرب تعرف لـهذا الفعل معنى غير القصد، قال الشّاعر:

 وَفي الأَظعانِ آنِسَةٌ لَعوبٌ تَيَمَّمَ أَهْلُها بَلَدًا فَساروا

أي: قصد أهلُها بلدًا، وقد استعمله القرآن الكريـم بـهذا الـمعنى، قال تعالى: **((**وَلَا تَيَمَّمُوا الـخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ**))،** أي: لا تقصدوا ولا تعمدوا، وهذا هو المعنى اللّغويّ للّفظ لا الإسلاميّ.

ومن الألفاظ الإسلاميّة (الـمؤمن)، فقد ذكر ابن فارس أنّ العرب قبل الإسلام عرفت الـمؤمن من الإيـمان، وهو التّصديق، ثـمّ زادت الشّريعة شرائط وأوصافًا بـها سُـمِّي الـمؤمن مؤمنًا. وقد استعمل القرآن الكريـم الـمعنى اللّغويّ للّفظة علـى لسان إِخوة يوسف –عليه السّلام–، قـال تعالـى: **((**وَمَا أَنتَ بِـمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صادقين**))** [يوسف17]، أي: وما أنت بـمصدِّق، ولو كنّا صادقين. ويُقال فــي كلام العرب: ما أُومِنُ بشيء مـمّا تقول، أي: ما أُصدِّق بذلك، وهكذا تـحوَّل معنى اللّفظة من التّصديق الـمطلق إلى التّصديق بالله، ورسله، وكتبه، وبالبعث، والصراط، والـجنّة والنّار...

ويلحظ أنّ القرآن الكريم حين وجّه معاني هذه الألفاظ إلى ما يريده كمعنى جحد نعم الله مع لفظ الكافر، ومعنى التّمسّح بالتّراب مع التّيمّم، ومعنى التصديق بالله، ورسله، وكتبه، وبالبعث، والصراط، والـجنّة والنّار...

مع الإيمان يلحظ أنّه لـم يلغ المعنى اللغوي للفظ بل استعمله كما رأينا مع الـمؤمن والتّيمّم هنا، والعربيّ يعرف الـمراد بالـموضعين، ومرشده في ذلك هو السّياق الذي ورد فيه اللّفظ.

وألقت السّنّة النّبويّة الشّريفة بظلالـها على طائفة كبيرة من ألفاظ اللّغة فأكسبتها معاني جديدة، لـم تكن مألوفة قبل الـمبعث، ومن الكلمات التي انضوت تـحت لواء الألفاظ الإسلامية **(**الصُّرَعَة**)**، فقد كان للحديث النّبويّ الشّريف أثر بيِّن في نقل اللّفظة مِن معناها الأصليّ إلى معنى جديد غير مسبوق، قال ابن الأثير –المتوفّى سنة606للهجرة- في حديث **(**ما تَعُدُّون الصُّرَعَةَ فيكم**) "**الصُّرَعَةُ المبالغ في الصِّراع الذي لا يُغْلَب، فنقله إلى الذي يَغْلِب نفسه عند الغضب ويقهرها"**.**

ونشير إلى أنّ بناء فُعَلَة يفيد الـمبالغة في اسم الفاعل كقولهم: رجل هُزَأَة وهو الذي يهزأ بالنّاس كثيرًا، ولُـحَنَة وهو الذي يلحن كثيرًا، وهُذَرَة وهو الذي يُكْثر الكلام في ما لا يعنيه. وقــــد حافظت لفظة **(الصُّرَعَة)** بعد انتقال دلالتها إلى المعنى الإسلامي على ما يفيده بناء فُعَلَة مِن إرادة الـمبالغة في اسم الفاعل؛ لأنّ الصُّرَعَة مِن الرِّجال هو مَنْ يبالغ في حِلْمه وقهر نفسه عند الغضب.

**\*- المشترك اللّفظيّ :**

يراد بالاشتراك: أنْ تكون اللّفظة مـحتملة لـمعنين أو أكثر، ويطلق اللّغويّون القدامى علـــى هـذه الظّاهرة عبـارة **(**ما اتّفق لفظُه واختلف معناه**)**، وألّفوا فيــها كتـــبًا، نذكر منــها كتـــاب **(**الأجناس من كلام العرب وما اشتبه في الألفاظ واختلف في المعنى**)** لأبي عُبَيد القاسم بن سلَّام –المتوفّى سنة224للهجرة-، وكتاب **(**ما اتفق لفظه واختلف معناه**)**لإبراهيم اليزيديّ -المتوفّى سنة225للهجرة-، وكتاب **(**ما اتّفق لفظُه واختلف معناه**)** لأبي العميثل -المتوفّى سنة240للهجرة-، وكتاب (ما اتّفق لفظه واختلف معناه من القرآن الـمجيد) للمبرّد -المتوفّى سنة285للهجرة-، وكتاب(الـمنجَّد في اللّغة) لكُراع النَّمل الـهُنائيّ –الـمتوفّى سنة310للهجرة-.

 وقد وقع الـخلاف بين اللّغويين حول وجود الـمشترك اللّفظيّ في اللّغة، فذهب معظمهم إلى وقوعه، وأنكره ابن درستويه –المتوفّى سنة347للهجرة- فقال**: "**إذا اتّفق البناءانِ في الكلمة والحروف، ثــمّ جاءا لمعنيين مختلفين، لم يكن بدٌّ مـن رجوعهما إلى معنى واحد يشتركان فيــه، فيصيران متّفقي اللّفظ والمعنى**"**، ورفض أنْ يكون للفعل **(**وجد**)** معان مـختلفة، وذهب إلى تأويل هذه الـمعاني تأويلًا يـُخْرجها من باب الاشتراك، ويرجعها إلى معنى واحد، قال في كتابه (تصحيح الفصيح): **"**فظنَ مَنْ لم يتأمل المعاني، ولم يتحقّق الحقائق أنّ هذا لفظ واحد قد جاء لمعان مختلفة، وإنَّما هذه المعاني كلّها شيء واحد، وهــو إصابة الشّيء خيرًا كان أو شرًّا**".** ونبّه أبو عليّ الفارسيّ -المتوفّى سنة377للهجرة- على أنّ "اتّفاق اللّفظين واختلاف الـمعنيين ينبغي أَلَّا يكون قصدًا في الوضع، ولا أصلًا، ولكنّه مِن لغات تداخلت**"**، وهذا رأي مقبول، إذ لا يُعْقَل أنْ يكون اللّفظ الواحد وُضِع ابتداء لـمعانٍ عديدة، فلا بدّ من وجود عوامل أسهمت في نشوء الـمشترك اللّفظيّ، نذكر منها:

**أ**-اختلاف اللّهجات العربيّة**:** وهو أبرز العوامل، ففي البدء كانت البيئة اللّغويّة تعبِّر بلفظ واحد عن معنى معين، ولا وجود للألفاظ الـمشتركة فيها، ثـمّ تعددت البيئات، وهكذا صار اللفظ مستعملًا في لـهجات العرب بـمعانٍ مـختلفة، لكنّ معجماتنا اللّغوية لا تُسْعفنا دائمًا بنسبة الـمعاني إلى القبائل الـمختلفة.

ب-تطوّر دلالة الألفاظ مِن معناها الأصلي إلى معانٍ مـجازيّة لعلاقة بينها.

ت-تطوّر دلالة الألفاظ الإسلاميّة**.**

ث-الاقتراض من اللّغات الأخرى**:** وذلك بأن تتحد كلمتان بالصّورة وتـختلفان بالـمعنى، إلّا أنّ كلَّا منهما ينتمي في الأصل إلى لغة مستقلّة، ولعل هذا قليل.

ج-التّطور الصّوتي في الألفاظ**:** مثال ذلك مَرَدَ بـمعنى أقبل وعتا، ومَرَدَ الـخبز بـمعنى لَيَّنه، فأصل اللّفظ في الـمعنى الثّاني هو: مرث الشّيءَ في الـماء: إذا أنقعه فيه، ثـمّ تـحوّل اللّفظ من (مرث) إلى (مرتَ) بابدال الثّاء تاء؛ لقرب مـخرجيهما، ثـمّ تـحوّل اللّفظ من (مرت) إلى (مَرَدَ) بإبدال التّاء دالًا؛ لقرب مـخرجيهما، وهكذا صار **(**مَرَدَ**)** من ألفاظ الـمشترك بسبب الـمعنى الـجديد الذي لـحقه، وهو: ليَّن بالـماء، ولعل هذا قليل أيضًا.

ولا تنفرد العربيّة بظاهرة الاشتراك، فهي موجودة في سائر اللّغات. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ اللّفظ الـمشترك عند استعماله في كلام العرب لا يـحتمل إلا معنى واحدًا، يعين السّياق على معرفته وتنحية الـمعاني الأُخرى، وعليه فإنّ الـمشترك اللّفظيّ لا وجود له إلّا في الـمعجمات، أمّا في نصوص اللّغة واستعمالاتـها فلا وجود إلّا لـمعنى واحد من معاني هذا الـمشترك اللّفظي.

ولا شكّ في أنّ للتّوسع الـمجازيّ في الـمعنى أثر في تكثير دلالات اللّفظ، فالعين –مثلا- تُطلق على الباصرة، وعين الـماء، وعين الشّـيء، أي: نفسه، والـحاسدة، وثقب الإبرة، والـجاسوس، والسّحابة، والشّريف... ولعلّ الـمعنى اللّغوي الأصلي هو العين الـمبصرة، ولعل العرب سـمّت عين الـماء عينًا؛ لـخروج الـماء منها كخروج الدّمع من عين الإنسان أو الـحيوان، وسـمّت الـحسد بالعين؛ لأنّ عين الـحسود هي الـمتسبِّبة في هذه الإصابة، وسـمّت ثقب الإبرة عينًا؛ لأنّ النُّور يدخل منه كما يدخل من العين الـمبصرة...

 واختصّت كتب الوجوه والنّظائر بالـمشترك اللّفظي فــي القرآن الكريم، ومعنى الوجوه والنّظائر **"**أنْ تكون الكلمة الواحدة، ذُكِرت في مواضع مِن القرآن على لفظ واحد وحركة واحدة، وأُريد بكلِّ مكان معنى غير الآخر، فلفظ كلّ كلمة ذُكِرت في موضع نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر هو النّظائر، وتفسير كلّ كلمة بمعنى غير معنى الأخرى هو الوجوه. إذن فالنّظائر اسم للألفاظ، والوجوه اسم للمعاني**".**

ومن الألفاظ التي تصرَّفت على وجوه من الـمعاني في القرآن الكريـم لفظة **(**الوحي**)** فجاءت بـمعنى الإلـهام، والأمر، والإيـماء أو الإشارة، والوسوسة، والإعلام بالـمنام، والإرسال والتّدبير، وخلْق الغريزة، فقد قيل إنّ **(**أوحى**)** في قوله تعالى: **((**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى**)):** ألـهمنا، وإنَّ **(**أوحى**)** في قوله تعالى: **((**بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَـهَا**)):** أَذن أو أَمَر، وإنّ **(**أوحى**)** في قوله تعالى: **((**فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**))** أَوْمَأَ أو رَمَز، وإنّ **(**يوحون**)** في قوله تعالى: **((**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ**)):** يوسوسون، وإنّ **(**وحيًا**)** في قوله تعالـى: **((** وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا**)):** إعلامًا في الـمنام، وإنّ **(**أُوحي إِليّ**)** في قوله تعالى: **((**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)**):** أُرْسِل إليّ، وإنّ **(**أوحى**)** في قوله تعالــى: **((**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا**)):** دَبَّر، وإنّ **(**أوحى**)** فــي قوله تعالى: **((**وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ**))** ألـهمها بأنْ خَلَقَ الغريزة فيها.

ونذكر مِن الكتب الـمصنَّفة في الوجوه والنّظائر كتاب **(**الوجوه والنّظائر في القرآن الكريـم**)** لـهارون بن موسى القارئ –المتوفّى سنة200للهجرة-، وكتـاب **(**تـحصيل نظائر القرآن**)** للحكيم التّرمذيّ -المتوفّى سنة320للهجرة-، وكتاب**(**نزهة الأعين النّواظر في علم الوجوه والنّظائر**)** لابن الـجوزيّ -المتوفّى سنة 597للهجرة-**.**

**\*- الأضداد**

يُطْلق هذا الـمصطلح على اللّفظ حين يدلّ على معنيين متناقضين أو متعاكسين، كالـجون يُطْلق على الأسود والأبيض، والسُّدْفة تُطْلق على الضّوء والظّلمة، والشّوهاء على الفرس القبيحة والـجميلة، والبصير على الـمبصر والضّرير.**.**

وربّـما ظنّ ظانّ مِن الوهلة الأولى أنّ في التّضادّ إلباسًا وتعمية على السَّامع، فلا يَدْري أيَّ الـمعنيين أراد الـمتكلِّم. ويُـجيب أبو بكر بن الأنباري -المتوفّى سنة328للهجرة- عن ذلك بقوله: **"**كلام العرب يصحِّح بعضُه بعضًا، ويرتبط أوّله بآخره، ولا يُعْرَف معنى الخطاب منه إِلّا باستيفائه واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوع اللّفظة على المعنيين المتضادّين؛ لأنَّها يتقدّمها ويأتي بعدها ما يدلّ على خصوصيّة أَحد المعنيين، ولا يُراد به في حال التّكلّم والإخبار إلّا معنى واحدًا**".**

وأوضح أبو الطّيّب اللّغويّ -المتوفّى سنة351للهجرة- الفرق بين الـمعنيين المتضادّين والـمعنيين الـمختلفين، فقال: **"**الأضداد: جمع ضدّ، وضدّ كلِّ شيء ما نافاه، نحو: البياض والسّواد، والسّخاء والبخل، والشّجاعة والجبن. وليس كلّ ما خالف الشّيء ضدًّا له، أَلَا ترى أنّ القوّة والجهل مختلفان وليسا ضدّين، وإنّما ضدّ القوّة الضّعف، وضدّ الجهل العلم**".**

وذهب كثير من اللّغويّين إلى وقوع هذه الظّاهرة في اللّغة، وخالفهم ابن درستويه -المتوفّى سنة347للهجرة-، ويُعَدّ مِن أبرز الـمنكرين للأضداد، فقد أنكر أنْ يكون **(**النَّوء**)** دالًّا على الارتفاع والسُّقوط، قال: **"**النَّوء، وهو الارتفاع بمشقّة وثقل، ومنه قيل للكوكب: قد ناء إذا طلع...وقد زعم قوم مِن اللُّغويّين، أَنّ النّوء السُّقوط أيضًا، وأنَّه من الأضداد، وقد أوضحنا الحجَّة عليهم في ذلك فـــي كتابنا (في إبطال الأضداد**)".** ويُعَدّ الآمديّ -المتوفّى سنة370للهجرة-من الـمنكـرين لوقوع الأضداد في اللّغة، فقد أَلَّف كتابًا في إنكار الأضداد سـمّاه **(**الحروف من الأُصول في الأضداد**).**

ويرى اللّغويّون القدامى أنّ التّضادّ نوع من أنواع الـمشترك اللّفظيّ، وتابعهم في ذلك كثير من الـمحدثين، ويبدو أنّه ليس مِن الصّواب عدّ التّضاد مِن الـمشترك؛ لأنّ أسباب نشأة الأضداد تـختلف في جوانب عديدة عن أسباب نشأة الـمشترك، يضاف إلى ذلك أنّ **"**الاختلاف أعمّ من التّضادّ، إذ كان كلّ متضادّين مختلفين، وليس كلّ مختلفين ضدّين**"**، وأنّ الألفاظ الـمشتركة ربّـما تعدّدت معانيها إلى العشرات في حين أنّ ألفاظ الأضداد لا تنصرف إلى أكثر من معنيين، ولعلّ ما صُــنِّف فيها من الكتب يدلُّ بوضوح على تفرّد هذه الظّاهرة واستقلالـها، ككتاب (الأضداد) لقُطْرُب –الـمتوفّى سنة206للهجرة-، وكتاب (الأضداد) للأصمعيّ -المتوفّى سنة216للهجرة-، وكتاب (الأضداد) للتَّوّزيّ -المتوفّى سنة233للهجرة-، وكتاب (الأضداد) لابن السِّكِّيت -المتوفّى سنة244للهجرة-، وكتـــاب (الأضداد) لأبي حاتـم السّجستانيّ -المتوفّى سنة255للهجرة-، وكتـــاب (الأضداد) لأبي بكر بن الأنباريّ، وكتاب(الأضداد مِن كلام العرب) لأبي الطّيب اللّغويّ.

وثـمّة أسباب أدّت إلى ظهور الأضداد في اللّغة نذكر منها:

أ-اختلاف لـهجات القبائل العربيّة**:** وهو أَنْ تُطْلِق إحدى القبائل اللّفظ على معنى معيّن، وتطلق قبيلة أُخرى اللّفظ نفسه على الـمعنى النّقيض، فالسُّدْفة في لـهجة قيس تعني الضَّوء، والسُّدْفة في لـهجة تـميم تعني الظُّلْمة، ولا يـمكن أنْ تضع قبيلة واحدة معنيين متضادّين للفظ واحد، قال أبو بكر بن الأنباريّ: **"**إذا وقع الـحرف على معنيين متضادّين، فمُحال أنْ يكون العربيّ أوقعه عليهما بـمساواة منه بينهما، ولكنّ أحد المعنيين لـحيّ من العرب، والـمعنى الآخر لـحيّ غيره**".**

ب-عموم الـمعنى الأصليّ**:** وهو أنْ يكون معنى اللّفظ عامًّا، ثـمّ يتحدّد بـمرور الزّمن بـمعنيين متضادّين، كلفظة **(**الطّرب**)** التي عُدَّت من الأضداد، يقال: طَرِبَ إذا فَرِحَ، وطَرِبَ إذا حزن، وتدلّ **(**الطّرب**)** في الأصل على الـخِفَّة التي تلحق الإنسان في وقت فرحه وحزنه، فيقال: قد طَرِب إذا استخفّ.ومن ذلك أيضًا **(**الـمَأْتَـم**)** إذ عُدَّت من الأضداد، يقال للنِّساء الـمجتمعات في الـحزن مأتـم، وللمجتمعات في الفرح مأتـم. وتدلّ **(**الـمأتـم**)** في الأصل على مـجتمع النِّساء والرِّجال في الـحزن والسُّرور، ثـمّ تـخصّص اللَّفظ بالاجتماع عند الـموت.

ت-التَّفاؤل**:** يُعَدّ سببًا آخر من أسباب نشوء الأضداد، فالعرب هنا فرّت من التَّشاؤم، وجنحت إلى التّفاؤل، فأطلقت **(**البصير**)** على الأعمى، و**(**السَّليم**)** علـى اللَّدِيغ، و**(**الـمَفازة**)** على الصّحراء، و**(**النَّاهل**)** على العطشان، وكلّ هذا من أجل التّفاؤل.

ث-الـخوف من الـحسد**:** وهو عامل نفسيّ كالذي قبله، فهم يتطيَّرون من الـحسد؛ لذلك أطلقوا على الفرس الـجميلة **(**شوهاء**)،** قال أبو حاتـم السِّجستانيّ: **"**لا أظنُّهم قالوا للجميلة شوهاء إلّا مخافةَ أنْ تصيبها عين**".** وأطلقوا على حديد البصر **(**أعور**).**

ج-التَّهكُّم**:** وهو أنْ يلجأ العربيّ إلى التّعبير عن الشّيء بكلمة مضادة من أجل الـهُزْء والسُّخْرية، فـــ**(**القَشِيب**)** تُطْلق في الغالب على الثَّوب الـجديد، وربـّما تُطلق على الثَّوب القديـم البالي؛ للتَّهكُّم، و**(**العاقل**)** يطلقونـها على الـجاهل؛ للتَّهكُّم.

ح-الاتّفاق في الصّيغة الصّرفيّة**:** مثال ذلك لفظة **(**الكَرِيّ**)** التي عُدَّت من الأضداد؛ لأنّـها تُطْلق على الـمُكْتَرِي والـمُكْتَرَى منه. ولعلّ الذي سوّغ القول بضدية هذه اللفظة أنَّ صيغة (فَعِيل) التـي جاءت عليها **(**الكَرِيّ**)** تدلّ مرّة على (مُفْعِل)، وتــدلّ مرّة أُخـرى علـى (مُفْتَعِل)، ذلك أنّ **(**الكَرِيّ**)** تقال لـمن يُكْرِي دابّته، يقال: أَكْرَى دابَّتهُ، فهو مُكْرٍ وكَرِيّ، فالكَرِي هنا فَعِيل بـمعنى مُفْعِل، ويُطْلق لفظ **(**الكَرِيّ**)** أيضًا علـــى الـمُكْتَرِي، وهــو الـذي يَكْتَرِي الدَّابَّة، والكّرِيّ هنا فَعِيل بـمعنى مُفْتَعِل.

خ-التّراكيب**:** مثال ذلك **(**رَغِبَ فيه**) و(**رَغِبَ عنه**)** بـمعنى أراد الشَّيء ولـم يرده، ومن الواضح أنّ معنى الضّديّة مكتسب مــن وجود حرف الـجرّ وليس من اللّفظ نفسه، وهذا ونظائره ينبغي أن يـخرج مـمّا عُدّ من الأضداد؛ لأنّ **(**في**)** ليس ضدًّا لــ**ـ(**عن**)،** فضلًا عن غياب الـمعنى فيهما خارج التّركيب.

**\*- الترادف**

هو دلالة الالفاظ الـمختلفة على الـمعنى الواحد، فالأسد، والـهِزَبْر، والضِّرْغام، واللَّيْث تدلّ جـميعها على هذا الـحيوان الـمعروف. والسَّيف، والـمُهَنَّد، والصَّارم، والـحسام تدلّ جـميعها على آلة الـحرب الـمعروفة. وأَسْهَبَ، وأَطْنَب، وأَفْرَط، وأَسْرَف جـميعها بـمعنى واحد.

وقد اختلف اللّغويّون القدامى إزاء هذه الظّاهرة، فأقرّها أكثرهم، وصنّفوا فيها كتبًا، ككتاب **(**ما اختلف ألفاظه واتفقت معانيه**)** للأصمعيّ-المتوفّى سنة216للهجرة-، وكتـاب **(**الألفاظ**)** لابن السّكّيت -المتوفّى سنة244للهجرة-، وكتــاب **(**الألفاظ الكتابيّة**)** لعبد الرّحـمن الـهمذانيّ -المتوفّى سنة320للهجرة-، وكتاب **(**جواهر الألفاظ**)** لقُدامة بن جعفر –المتوفّى سنة337للهجرة-، وكتاب **(**الألفاظ الـمترادفة الـمتقاربة الـمعنى**)** للرّمّانيّ –المتوفّى سنة384للهجرة.

وأنكر وقوع التّرادف في اللّغة جـماعة من اللّغويّين، لعلّ أشهرهم ابن الأعرابيّ –المتوفّى سنة231للهجرة- الذي يقول : **"**كلّ حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، في كلِّ واحد منهما معنى ليس في صاحبه، ربّـما عرفناه فأخبرنا به، وربّـما غمض علينا فلم نُلزم العرب جهله**".** وتابعه تلميذه ثعلب -المتوفى سنة291للهجرة- في ذلك فقال: "إنّ كلّ ما يُظن من المترادفات فهو من المتباينات التي تتباين بالصّفات كما في الإنسان والبَشَر، فإنّ الأوّل موضوع له باعتبار النِّسْيان أو باعتبار أنّه يُؤْنس، والثّاني أنّه بادي البشرة"**.**

ومن هذه الطّائفة أيضًا ابن درستويه –المتوفّى سنة347للهجرة-،وابن فارس -المتوفّى سنة395للهجرة-،وأبو هلال العسكري -المتوفّى سنة395للهجرة-. واشترط الدّارسون الـمحدثون الاتّفاق في معنى اللّفظتين اتفاقا تامًّا، والاتّـحاد في البيئة اللّغويّة والعصر، وأنْ لا يكون أحد اللّفظين نتيجة تطور صوتيّ.

وثـمّة أسباب أدّت إلى نشوء وتكاثر الـمترادف في اللّغة، نذكر منها:

أ-اختلاف اللّهجات العربيّة: فـ(السِّكّين) في لغة عامّة العرب، و(الـمُدْية) في لغة قبيلة دَوْس، وروي أنّ الرّسول -صلّى الله عليه وآله وسلّم- طلب سِكِّينًا كانت بالقرب من أبي هريرة الذي يقول: "لـم أعرف ماذا أراد بكلمة (سِكِّين)، فلمَّا رأيته ينظر إليها، عَلِمْتُ أنّه يريدها، فقلت له: آلـمُدْية تريد؟ ثـم ناولته إيَّاها"**.**

ب- انتقال النّعوت بـمرور الزَّمن إلى الاسـمية وفقدانـها صفاتـها**:** وهــو أنْ يكون للشّــيء الواحد في الأصل اسم واحد، ثـمّ يُوصَف بعد ذلك بصفات مـختلفة دالة عليه، ثـمّ تُعَدّ أسـماءً له مع كثرة الاستعمال وطول الزّمن، كالأسد وصفاته، والسّيف وصفاته، فقد ذكر ابن خالويه -المتوفّى سنة370للهجرة- في مـجلس سيف الدّولة أنّه يـحفظ للسّيف خـمسين اسـمًا، وذكر أبو عليّ الفارسيّ -المتوفّى سنة377للهجرة- أنّه لا يـحفظ له إلّا اسـمًا واحدًا وهو السّيف، قال ابن خالويه: فأين الـمُهَنَّد، والصّارم، وكذا، وكذا؟ فقال أبو عليّ: هذه صفات.

ت-الاقتراض من اللّغات الأجنبية**:** فقد اقترضت العربيّة مِن الفارسيّة الدِّمَقْس والإستبرق للحرير، والبُهْرج للباطل، والبَخْت للحظِّ، وذلك بعد تعريبها.

ث-التطور الصوتي**:** فقد عدّوا لفظتي أسود **(**حالك**)،** وأسود **(**حانك**)** مـــن التّرادف. والصّواب أنّ اللّفظين أعني **(**حالك**)،** **(**حانك**)** غير مترادفين؛ لأنّـهما فــي الأصل لفظ واحد حصل فيه إبدال، ومِن العرب مَنْ تـَمَسَّك باللّفظ الأصيل، ومنهم مَنْ جنح إلى ما حصل فيه الإبدال. وشرط التّرادف أنْ يُسْتعمل اللّفظان اللّذان يدلان على معنى واحد في بيئة لغوية واحدة وعصر واحد وهذا غير متحصِّل في اللّفظين، فقد قيل "لأَعرابي: أَتقول: مثل حُلْك الغراب أو حُنْكه؟ فقال: لا أَقول حُلْكه"**.** أي إنّ الذي يقول: حُلْك لا يقول: حُنْك، وإنّ الذي يقول: حُنْك، لا يقول: حُلْك، فهذا اللّفظ مستعمل في لـهجة، وذاك في لـهجة أُخرى، فهما ليسا مِن التَّرادف في شيء؛ لاختلاف البيئة اللّغوية.

ج-تدوين أصحاب الـمعجمات ألفاظًا كثيرة كانت العرب قد هجرت استعمالـها.

 ولابدّ من التّنبيه على أنّ هناك مترادفات نصّت كتب اللّغة على أنّـها مِن هذا الباب، لكنّ تدبّر الـمعنى بدقة يهدي إلى وجود فروق لغوية دقيقة بينها،ولعلّه مِن الأوفق أنْ تعدَّ هذه الألفاظ متقاربة الـمعاني وليست متطابقة تـمامًا، وكان أبو هلال العسكريّ قد عُنِي بذكر الفروق اللّغوية بين اللّفظين تأكيدًا لـمذهبه في رفض القول بوقوع التّرادف في اللّغة، قال في مقدمة كتابه (الفروق في اللّغة): "كلّ اسـمين يـجريان على معنى من الـمعاني وعين من الأعيان في لغة واحدة، فإنّ كلَّ واحدٍ منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلَّا لكان الثَّاني فضلًا لا يُـحتاج إليه"، وعليـه فإنّـه علــى رأيه "لا يـجوز أنْ يكون اللّفظان يدلّان على معنى واحد؛ لأنّ في ذلك تكثيرًا للّغة بلا فائدة فيه"**.** فهناك فرق بين الـمَلِك والـمالك فالأوّل أعمّ من الثّاني؛ لأنّ ما تـحت حِياطة الـمَلِك أكثر مـمّا تـحت حِياطة الـمالك. وهناك فرق بين الـجلوس والقعود؛ لأنّ الـجلوس انتقال مِن سفْل إلى عُلُوٍّ وعليه يقال لـمَنْ هو نائم: اجلس، والقعود انتقال مِن عُلُوٍّ إلى سفْل وعليه يقال لـمَن هو قائم: اقعد. والفرق بين النَّفْش والـهَمَل أنّ النّفْش لا يكون إلّا باللّيل، والـهَمَل يكون ليلًا ونـهارًا. والفرق بين البيان والتِّبيان هو أنّ البيان جعل الشَّيء مُبَيَّنًا بدون حُجَّة، والتِّبيان جعل الشَّيء مُبَيَّنًا مع الـحجّة. والفرق بين الرّسول والنَّبيّ أنّ الرّسول أَخصّ مِن النَّبيّ؛ لأنَّ كـلَّ رسول نبيّ وليس كـلّ نبي رسولًا. والفرق بين الـحَسَد والغِبْطة أنَّ الـحَاسد يتمنّى زوال النِّعمة عن صاحبها وإنْ لـم يُرِدْها لنفسه، والغابِط يتمنّى أنْ يكون له مثلُ ما للآخرين وأنْ يدوم للآخرين ما هم فيه من النِّعمة. والفرق بين الـخضوع والـخشوع أنَّ الـخضوع يـكون فـــي البدن، والـخشوع فــي البدن والبصر والصّوت،قال تعالى: **((**وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَـمْسًا**))**. والفرق بين التَّدبّر والتَّفكّر أنَّ التَّدبّر تصرّف القلب بالنَّظر في العواقب، والتّفكّر تصرّف القلب بالنَّظر إلى الدّلائل.

**\* الاشتقاق**

يعدّ الاشتقاق وسيلة مهمة مِن وسائل نـموّ العربيّة، فعربيّتنا توصف بأنّـها لغة اشتقاقيّة، فبالاشتقاق تكثر الـمفردات وتتسع اللّغة ويزداد ثراؤها، وهكذا تتمكّن من التّعبير عن الـجديد مِن الأفكار والـمُسْتَحْدَث من وسائل الـحياة.

وقد عُنِـي اللُّغويُّون القدامى بـهذا الـموضوع فصنّفوا فيه كتبًا، نذكر منها كتاب (الاشتقاق) للأصمعيّ –المتوفّى سنة216للهجرة-، وكتاب (الاشتقاق) لابن السَّرَّاج –المتوفّى سنة316للهجرة-، وكتاب (الاشتقاق) لابن دريد -المتوفّى سنة321للهجرة-، وكتاب (اشتقاق أسـماء الله) للزَّجَّاجيّ –المتوفّى سنة337للهجرة-.

وللاشتقاق أنواع نذكر منها:

**1-الاشتقاق الصّغير:**

وهو أنْ تشتقّ مِن الفعل (عَلِمَ) -مثلًا- ألفاظًا أُخرى نـحو: يَعْلَمُ، وأَعْلَمُ، وعالِم، ومعلوم، وعليم، وعَلَّام، وتَعْليم، واستعلام، ومُعَلِّم**... .**

ومذهب جـمهور العلماء أنّ هذا الاشتقاق لا بدَّ له مِن سند في نصوص اللُّغة يبرهن على أنّ العرب قد استعملوا مثله أو نظيره، وأنّ هذا النَّظير كثير الورود في كلامهم الـمرويّ عنهم.

ويُسَمَّى هذا الاشتقاق أيضًا بالاشتقاق الأصغر، والاشتقاق العامّ، والاشتقاق الصّرفيّ، قال ابن جنّي –المتوفّى سنة392للهجرة- في كتابه الـخصائص: **"**فالصَّغير ما فـي أيدي النَّاس وكتبهم، كَأَنْ تأخذ أصلًا مـــن الأُصول فتتقرَّاه، فتجمع بين معانيه، وإن اختلفت صيغه ومبانيه، وذلك كتركيب (س ل م) فإنّك تأخذ منه معنى السَّلامة في تصرّفه نـحو سلم، ويسلم، وسالـم، وسلمان، وسلمى، والسّلامة... فهذا هو الاشتقاق الأصغر**".**

وقد كان الكوفيُّون يذهبون إلى أنّ الفعل هو أصل الـمشتقّات، في حين ذهب البصريّون إلى أنّ الـمصدر هو أصل الـمشتقّات والفعل مشتقّ منه؛ لأنّ الفعل يتضمّن معنى الـمصدر وزمانًا، أي: يتضمّن الـحدث والزَّمن وهذه الزِّيادة تقتضي أنْ يكون متأخِّرًا عن الـمصدر، وعليه فهم يرون أنَّ الضَّرْب هو الأصل، ومنه اشتق ضَرَبَ، ويَضْرِبُ، واضْرِبْ، وضَارِب، ومَضْرُوب، ومَضْرَب، وضَرَّاب... ويـجوز عند هؤلاء الاشتقاق من أسـماء الأعيان كاستحجر الطّين، واستأسد الرّجل، وتشيطن الصّبيّ، فهذه الأفعال مشتقة عندهم من الـحجر، والأسد، والشَّيطان.

ولكثرة استعمال الاشتقاق الأصغر (الصّرفيّ أو العامّ) أجاز مـجمع اللّغة العربيّة بـمصر استعماله قياسًا عند الضّرورة.

**2-الاشتقاق الكبير :**

وهو أنْ تأخذ أصلًا مِن الأُصول الثّلاثيّة، فتعقد عليه وعلى تقاليبه السِّتَّة معنى عامًا، ويسمِّيه ابن جنـي الاشـــتقاق الأكبـر نـحو (ق س و)، و(ق و س)، و(و ق س)، و(س و ق)، وأمّا (س ق و) فهو مهمل، وجـميع هذه التّقليبات يـمكن رَدُّها إلى القُوَّة والاجتماع.

فمنها (القسوة)، وهي: شدَّة القلب واجتماعه.

ومنها (القوس): سُـميت كذلك؛ لشدّتـها واجتماع طرفيها.

ومنــها (الوَقْس)، وهــو: ابتداء الـجَرَب، سُـمّي بذلك؛ لأنّه يـجمع الـجِلد ويُقْحِله، أي: يـجعله يابسًا. ومنــها(الوَسْق)، قال تعالى: ((واللَّيلِ وما وَسَق))، أي: جَمَع.

ومنها (السَّوْق): سُـمِّي به؛ لأنّه استحثاث، وجـمع للمَسُوق بعضه إلى بعض.

ولا بدّ من التّنبيه على أنّ تقليب اللّفظ بـهذه الطَّريقة كان قد سبق إليه الـخليل -المتوفّى سنة175للهجرة- في معجمه (العين)، فقد توخّـى حصر الـموادّ اللّغويّة؛ لـمعرفة الـمستعمل منها والـمهمل. وأشار ابن جني إلى أنّ رَدَّ التَّقليبات إلى معنى واحد غير مطرد دائمًا، فهو يقول:"واعلم أَنَّا لا نَدَّعي أنَّ هذا مستمرّ في جـميع اللغة".

**-القلب المكانيّ:**

وُضِعَت هذه الظّاهرة في ضمن الاشتقاق الكبير، وتُسَمّى القلب اللّغوي أيضًا. وعُرِّفت بأنّـها انتقال حرف أصليّ مِن مكانه في الكلمة إلى مكان حرف أصليّ آخر في الكلمة نفسها، كما في: (جَبَذَ**)** والأصل (جَذَبَ**)**، و(صَاقِعَة**)** والأصل **(**صَاعِقَة**)**، و(ٱمْضَحَلَّ**)** والأصل (ٱضْمَحَلَّ**)، و**(ٱكْرَهَفَّ**)** والأصل (ٱكْفَهَرَّ**)...**

وتُعَدُّ ظاهرة القلب الـمكاني ظاهرة واضحة في اللّغة العربيّة لا يصحُّ إنكارها، ونـحن نلحظها في لغة الأطفال الذين لا يستطيعون نطق الألفاظ الكثيرة التي يسمعونـها، فيقلبون بعض حروفها مكان بعضها الآخر.

وتتمثّل هذه الظّاهرة واضحة في بعض اللهجات، فالعامّة في مصر يقولون: (مَرْسَح) بدلًا من (مَسْرَح)، وأهل الموصل في العراق يقولون: (دَحِّق) بدلًا من (حَدِّق)، و(مِعْلَقَة) بدلًا من (مِلْعَقَة).

والأسباب التي أدّت إلى حدوث القلب المكانيّ، هي: ميل المتكلّمين إلى التّخفيف اللّفظيّ، والتّوهّم السّمعيّ؛ بسبب ضعف الإصغاء، وتدافع الحروف على اللِّسان والخطأ في إخراجها، وعيوب النّطق عند الأطفال التي تتسرّب إلى لغة الكبار من غير تصحيح.

وهناك شروط يُتَوَصَّل بها إلى أنّ أحد اللّفظين أصل والآخر مقلوب منه، أو أنّهما أصلان، وليس أحدهما مقلوبًا من صاحبه.

وأوّل هذه الشّروط أنْ يكون أحد اللّفظين أكثر استعمالًا من الآخر، فيكون الأكثر استعمالًا هو الأصل والآخر مقلوبًا منه، فإنّ (رَعَمْلِي) مقلوب من (لَعَمْرِي)؛ لكون الأخير أكثر استعمالًا.

وثاني هذه الشّروط أنْ يكون أكثر التّصريف واقعًا على أحد اللّفظين، ويكون اللّفظ الآخر أقلّ تصرّفًا، فإنّ (شواعي) مقلوب من (شوائع)؛ لكون الأخير أكثر تصرّفًا، فيقال: شاع يَشِيع شُيوعًا، ومنه اشتقّ (شوائع).

وثالث هذه الشّروط أنْ يكون في أحد اللّفظين ما يشهد له بأنّه مقلوب من الآخر، فإنّ (أَيِسَ) مقلوب من (يَئِسَ)، إذ لو لـم يكن مقلوبًا لوجب إعلاله؛ لِتَحَرّك الياء وانفتاح ما قبلها.

فإذا لـم يتحقّق واحد من هذه الشّروط حكمنا بأنّ كلّ واحد من اللّفظين أصل بنفسه، وكان ابن جنّي -المتوفّى سنة392للهجرة- يعتمد تصريف اللّفظين سبيلًا إلى تـحديد أصالتهما، أو حدوث القلب بينهما، فإذا كان تصرّف اللّفظين واحدًا حكمنا بأنّـهما أصلان، ليس أحدهـما مقلوبًا من الآخر، قال ابن جني في كتابه الـخصائص: "ومـمّا تركيباه أصلان لا قلبَ فيهما، قولـهم: جذب وجبذ، ليس أحدهـما مقلوبًا عن صاحبه، وذلك أنّـهما جـميعًا يتصرّفان تصرّفًا واحدًا، نـحو: جذب يـجذب جذبًا، فهو جاذب، والـمفعول مـجذوب، وجبذ يـجبذ جبذًا، فهو جابذ، والـمفعول مـجبوذ".

ولـم تتّفق أحكام الـمدرستين على ما وجدوه من أمثلة لظاهرة القلب الـمكانيّ، قال أبو جعفر النّحّاس -المتوفّى سنة338-: "القلب الصّحيح عند البصريّين مثل: (شاكي السّلاح، وشائك)، و(جُرُف هارٍ، وهائر)، وأمّا ما يسـمّيه الكوفيّون القلب، نـحو: (جذب، وجبذ) فليس هذا بقلب عند البصريّين، وإنّـما هـما لغتان". فكأنّ البصريّين قصروا القلب الـمكانيّ على ما حصل في الـمعتل والـمهموز.

ولتوضيح الـمثال الـمذكور نقول: إنّ لفظ (هارٍ) في قوله تعالى: ((أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ على شَفَا جُرُفٍ هارٍ)) أصله: (هائر)، وقد خفَّفت العرب هـمزتـها بإبدالـها ياءً، فصار اللّفظ (هاير)، ثـمّ حدث قلب مكانيّ في هذه اللّفظة لتتحول إلى (هاري) بزنة (قاضي)، وعندئذٍ تُستعمل استعمال الـمنقوص، فيقال: (هارٍ).

**3-الاشتقاق الأكبر:**

وهو أنْ يقع بين الـمشتقّ والـمشتقّ منه تناسب في مـخرج الأصوات، كما في: (مَدَحَ، ومَدَهَ)، و(بُعْثِر، وبُـحْثِر)، و(الثُّوم، والفُوم)، و(تَلَعْثَم، وتَلَعْفَم)، و(سَقْر، وصَقْر)، و(لازِب، ولازِم)، و(سِراط، وصِراط)...

ويلحظ أنّ هذا النّوع من الاشتقاق يقع غالبًا بسبب وجود علاقة صوتيّة وثيقة بين الصّوتين الـمُبْدَل والـمُبْدَل منه، كأنْ يكونا متقاربين في المخرج، أو يكونا متّفقين في الصِّفات، أو غير ذلك مـمّا يسوّغ الإبدال بينهما.

ولابدّ من التّنبيه على أنّ تغيّر الصّوت ربّـما صحبه تغيير جزئيّ في الـمعنى يناسب ذلك الصّوت، غير أنّ الدّلالة العامّة تبقى واحدة، فدلالة القطع -مثلًا- يـمكن أنْ نَـحُسَّها في الأفعال: قَطَّ، وقَطَعَ، قَطَفَ، وقَطَمَ، لكنّ اختلافًا جزئيًا وقع في الـمعنى بين هذه الـمواد سببه تغيّر الصّوت؛ ليتناسب الصّوت مع الـمعنى.

وقد وقف ابن جني -المتوفّى سنة 392للهجرة- عند الـمعاني الـمتغيّرة باختلاف الصّوت، قال في كتابه (الـخصائص): "فأمّا مقابلة الألفاظ بـما يُشاكِل أصواتَـها مِن الأحداث فباب عظيم واسع، ونَـهْج مُتْلَئِبّ عند عارفيه مأموم. وذلك أنّـهم كثيرًا ما يـجعلون أصوات الـحروف على سَـمْت الأحداث الـمُعَبَّر بـها عنها، فيعدّلونـها بـها ويـحتذونـها عليها. وذلك أكثر مـمّا نُقَدِّره، وأضعاف ما نستشعره، فمن ذلك قولهم: (خَضِمَ، وقَضِمَ)، الخـَضْم لأكل الرَّطْب كالبِطِّيخ والقِثَّاء، وما كان نـحوها من الـمأكول الرّطب. والقضم للصّلْب اليابس، قَضَمَت الدّابّة شعيرها...فاختاروا الـخاء لرخاوتـها للرّطب، والقاف لصلابتها لليابس؛ حذوًا لـمسموع الأصوات على مـحسوس الأحداث. ومن ذلك قولـهم: النَّضْح للماء ونـحوه، والنَّضْخ أقوى من النَّضْح، قال الله سبحانه: ((فيها عَيْنانِ نَضَّاخَتان))، فجعلوا الـحاء لرقّتها للماء الضّعيف، والـخاء لغلظها لـِما هو أقوى منه".

4-**الاشتقاق الكُبَّار :**

ويُعْرف بالنَّحْت، وأصله أنْ تُؤْخذ أصوات كلمة من جملة ذات دلالة كاملة، فتدلّ تلك الكلمة المُنْتَزَعة على دلالة الجملة بأكملها، وهكذا ينحت العربيّ كلمة واحدة من كلمتين أو أكثر بعد اختزال عدد حروفها.

وكان الخليل -المتوفّى سنة175للهجرة- قد نَبَّه على هذه الظَّاهرة، فأشار إليها في معجمه العين، وعدَّ الثَّعالبيّ -المتوفّى سنة429للهجرة- النَّحْت جنسًا مِن الاختصار، وأشار إلى مـجموعة من الكلمات الـمُنْتَزَعَة من الـجمل للتَّعبير عن مدلولها، فـ(البَسْمَلَة) مأخوذة من (بسم الله الرّحمن الرّحيم)، و(الـحَوْقَلَة) مأخوذة من قولهم: (لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله)، و(الطَّبْقَلَة) مأخوذة من قولهم: (أَطالَ اللهُ بقاءَك)، و(الدَّمْعَزَة) مأخوذة من قولهم: (أَدَامَ اللهُ عِزَّكَ)، و(الـجَعْلَفَة) مأخوذة من قولهم: (جُعِلْتُ فِداك). وهكذا يقال: بَسْمَلَ الرَّجل، وحَوْقَلَ، وحَـمْدَلَ، وحَيْعَلَ، وطَبْقَلَ، ودَمْعَزَ، وجَعْلَفَ، وهذا هو النَّحت الفعليّ.

وأمّا النّحت الاسـميّ، فهو: أنْ تنحت من كلمتين اسـمًا مثل: (جَلْمُود)، فهو مأخوذ من (جَـمَدَ ،وجَلَدَ)، الـجَلْمُود: الصَّخْر.

ويكون النّـحْت النَّسَبِيّ في الأعلام الـمُركَّبة، مثل: عبد شـمس، وعبد الدّار، وتيم اللّات، وعبد الله، فنقول: بعد النَّحْت (عَبْشَمِيّ)، و(عَبْدَرِيّ)، و(تَيْمُلِيّ)، و(عَبْدَرِيّ).

**\*التَّعريب:**

يُرادُ بتعريب الاسم الأعجميِّ: أنْ تتفوهَ به العربُ على مناهجها في الكلامِ، تقولُ: عَرَّبَتْهُ العربُ وأعْرَبَتْهُ أيضًا، وقيلَ في تعريفِ الـمُعَرَّبِ أيضًا: هو ما استعملتهُ العربُ مِنْ الألفاظِ الـموضوعةِ لـمعانٍ في غير لغتها.

أي إنَّ العربَ طَوّعتِ اللَّفظَ الأجنبي بألسنتها، فَغَـيَّرَتْ فيه بالزِّيادة، أو النُّقصان، أو الإبدال في الأصوات، بـحيث يـجري بـحسب أَبْنيتها ويوافق أصواتـها، حتّى يغدو علــى صورةٍ شبيهةٍ بصورة الألفاظِ العربيّة.

وقد نالَ التَّعريبُ عنايةً واضحةً مِنَ العربِ بسبب أهـمّـيَّته لـهم؛ لاتّصالـهم قديـمًا بالأممِ الـمجاورةِ، واطّلاعهم علــى الثَّقافاتِ الأجنبيةِ، فكانَ لا بُدَّ لـهم مِـنَ التَّأثُّـر والتَّـأثير، فأخـذوا وأَعطوا؛ لأنَّ الـحضارةَ آخذة بأسبابِ التَّقدّم في ميادين الـمعرفةِ الـمختلفة. لكنَّ العربَ تصرَّفوا بـما أخذوه مِنَ اللُّغاتِ الأُخرى، فكثير مِنَ الألفاظِ الـمعرَّبةِ لـم تكنْ هذهِ هَيْأتـها أصواتًا وبنيةً فــي اللّغةِ التـــي انـحدرتْ منها، إذ لـم يبقَ الـجانبُ الصّوتي ُّ فيـها مـحافظًا علــــى هيأتهِ القديـمةِ؛ لأنَّ العربيةَ تـمسكتْ بـمـــا لديها مِنَ الأصواتِ، ولـم تشأ أنْ تضيفَ إليها صوتًا جديدًا غيرَ مألوفٍ فيها؛ لذلك طرأتْ على كثيرٍ مِنْ أصواتِ الكلماتِ الأعجميةِ تغييراتٌ بالإبدالِ والـحذفِ والزِّيادةِ مــع مراعاةِ أصواتِ اللَّفظِ نفسهِ.

واستعملَ العربُ إلـى جانبِ الـمعرَّبِ ألفاظًا أعجميةً كما هي في لغتها الأصليةِ فلم يُغَيِّروا فيها شيئًا، وقــد أُطلِقَ عليــها اسمُ الأعجميِّ الدَّخيل، وربَّـمــا اكْتُفِيَ بتسميِتها بـــ(الدَّخيل)، فكأنَّـهم أرادوا بـهذهِ التّسميةِ استبعادَها مِنَ العربيةِ، وتـَمْيِيزَها مـمَّا هو مُعَرَّبٌ أو عربيٌّ؛ لأنَّ الـمُعَرَّبَ قد صارَ بعدَ تغييرهِ عربيًا.

غيرَ أنَّ الـمتأخرينَ مِنَ الـمؤلفينَ لـم يلتزموا بـهذا التَّمييز بين النَّوعينِ: أعني الـمعرّبَ والدّخيلَ، فأطلقوا على الـمعرَّبِ اسمَ الدّخيلِ أيضًا، عــلى نـحوِ مـا نـجدُه فـــي كتابِ شهاب الدِّين الـخفاجيّ –المتوفّى سنة1069للهجرة- الذي سـمَّاهُ: (شفاء الغَلِيلِ في ما في كلامِ العربِ مِنَ الدَّخيلِ)**.**

وقد دلَّت البحوثُ علـــى أنَّ العربَ قـــد اقترضتْ قبلَ الإسلامِ منَ اللُّغاتِ الشَّرقيَّةِ كالآراميَّةِ، والفارسيَّةِ، والـحبشيَّةِ، والعِبْـريَّةِ، والـهِنديَّةِ **(**السِّنْسِكْرِيْتِيَّة**)**، واقترضتْ أيضًا مِـنَ اليونانيـّـةِ **(**الرُّوميَّة**)**، وهذا يَدُلُّ علــى قدرةِ العربيّةِ الفائقةِ علــى استيعابِ الـجديدِ مِـنَ الألفاظِ، وهضمهِ؛ ليكونَ جزءًا منها، مُعَبِّرًا عن شؤونِ الـحياةِ الـمختلفةِ.

وليستِ العربيَّةُ بِدْعًا بينَ اللّغاتِ حينَ أَفادتْ مِنْ ظاهرةِ الإبدالِ لتعريبِ اللَّفظِ، فقد صنعَ الفُرْسُ صَنِيْعَ العربِ حينَ لـم يـجدوا بينَ أصواتِ لغتِهم **(**العينَ، والغينَ، والحاءَ، والقافَ، والطّاءَ، والظّاءَ، والصّادَ، والضّادَ، والذّالَ، والثّاءَ**)**، فإذا اضطروا إلـــى أنْ يتكلَّموا بكلمةٍ عربيّةٍ أو مُعَرَّبَةٍ في بِنْيَتها حرفٌ مـــن هذهِ الـحروفِ أبدلوا ذلكَ الـحرفَ بـحرفٍ قريبٍ منهُ فــــي الـمخرجِ، كما في إبدالِ الـحاءِ هاءً**،** فقالوا: في **(**مُـحَمَّد**) (**مُـهَمَّد**).**

ومِنَ الأمثلةِ على التَّعريبِ بالاعتماد على الإبدالِ كلمة **(**الـجَوْز**)** التي كانَت تُنطقُ **(**كَوز**)**، ويبدو أنَّـهم كانوا ينطقونَـها بصوتٍ بينَ (الـجيم والكافِ)، أي: الصَّوت الـمماثل لصوت **(**G**)** فـــي اللُّغةِ الإنـكليزيّة، لذلكَ أحدثتِ العربُ فـــي هذا اللَّفظِ تغييرًا، فأبدلوا الكَاف جيمًا**،** فتحوَّلَ لفظُ كَوز إلى جوز**.**

ومنَ الأمثلةِ على ذلك أيضًا كلمةُ **(**مُهَنْدِس**)** التي كانت في الأصلِ عندَ الأعاجمِ **(**مُهَنْدِز**)،** فأبدلتِ العربُ الزَّايَ سينًا؛ لأنَّهُ ليسَ في كلام العربِ على ما ذكرَ اللّغويّونَ زايٌ بعدَ دالٍ**.**

وهناكَ عَلائِمُ وسـماتٌ وضعها اللّغويّونَ؛ لتمييزِ اللّفظِ الـمُعَرَّبِ والدَّخيلِ مِنَ اللَّفظِ العربيِّ، وهي:

1-إذا خلا اللَّفظُ الرُّباعيُّ والـخماسيُّ منَ (لام، أو راء، أو نون، أو فاء، أو باء) فإنَّ هذا اللَّفظَ يُعَدُّ دخيلًا، كما في (العَسْجَد).

2-إذا كان اللّفظُ فيه نون بعدها راء فهوَ مُعَرَّبٌ، مثل: (النَّرْجِس)، و(الــنَّــرْد).

3-إذا اجتمعت الـجيمُ والقافُ في كلمةٍ، فإنَّ هذهِ الكلمةَ تُعَدُّ مُعَرَّبَةً، كما في (الجـَوالِق).

4-إذا اجتمعتْ صادٌ وجيمٌ في كلمةٍ، فإنَّ هذهِ الكلمةَ تُعَدُّ مُعَرَّبَةً، كما في (الـجُصّ)، و(الصَّوْلَـجان).

5-إذا اجتمعت الطَّاءُ مع الـجيمِ في كلمةٍ، فإنَّ هذهِ الكلمةَ تُعَدُّ مُعَرَّبَةً، كما في (طاجن).

6-إذا اجتمعت الباءُ والسِّينُ والتَّاءُ في كلمةٍ، فإنَّ هذهِ الكلمةَ تُعَدُّ مُعَرَّبَةً، كما في (البُسْتَان)، و(البَسْــتُوْقَة).

7-إذا خرجت الكلمةُ عنِ الأوزانِ العربيّةِ، فإنَّ هذهِ الكلمةَ تُعَدُّ مُعَرَّبَةً،كما في (إكْسِيْر)، و(إنْـجِيْل).

ولعلَّ أبرزَ الـخلافاتِ في ظاهرةِ التَّعريبِ يُظْهِرُهُ الكلامُ الذي يَتَّصلُ منها بالقرآنِ الكريـمِ، إذ اختلفَ اللُّغويّونَ والـمفسِّرونَ في قضيةِ وقوعِ الـمعرَّبِ في القرآن الكريـمِ، على ثلاثة طوائف:

1-الطّائفة الأولى: ومنهم الشَّافعيُّ -المتوفّى سنة204للهجرة-، وأبو عبيدةَ-المتوفّى سنة210للهجرة-، والطَّبَرِيُّ -المتوفّى سنة310للهجرة-، وابنُ فارسٍ -المتوفّى سنة 395للهجرة-، وغيرهم، فقد ذهبَ هؤلاء إلى إنكارِ وقوعِ الـمُعَرَّبِ في القرآنِ الكريـمِ؛ تنزيهًا له مِنَ اللَّفظِ الأعجميِّ، مـحتجّين بقولهِ تعالى: ((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ))[يوسف2]، وقوله تعالى: **((**بِلِسَانٍ عَــرَبــِـيٍّ مُبِينٍ**))**[الشّعراء195]، وقوله تعالى: **((**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبـِيٌّ**)) [**فصلت44].

قالَ أبو عبيدةَ في كتابهِ (مـجاز القرآن): "إنَّما أُنزِلَ القرآنُ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، فمَنْ زَعَمَ أنّ فيهِ غيرَ العربــيّةِ فقد أَعْظَمَ القولَ، وَمنْ زعمَ أنَّ كّذا بالنَّبطِيَّةِ فقد أكْبَرَ القولَ".

وتابعه ابنُ فارسٍ ذاهبًا إلى أنَّ "القرآن لو كانَ فيه مِنْ غيرِ لغةِ العرب شيءٌ لَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أنَّ العربَ إنَّما عَجَزَتْ عنِ الإتيانِ بمثلهِ؛ لأنَّهُ أتى بلغاتٍ لا يعرفونـها، وفي ذلك ما فيه، فلا يَظُنُّ ظانٌّ أنَّ فيهِ تَعجيزًا لا إعجازًا".

ويَعُدُّ هؤلاءِ الألفاظَ القرآنيّةَ الـمنسوبةَ إلى لغاتٍ أُخرى من بابِ اتفاقِ اللُّغاتِ، أي: مـمَّا وافقَ الأعجميُّ العربيّ.

2-الطّائفة الثّانية: ومنهم الثّعالبيُّ –المتوفّى سنة429للهجرة-، والسّيوطيّ-المتوفّى سنة911للهجرة-، وغيرهـما، فقد ذهب هؤلاء إلى القول بوقوع الـمعرب في القرآن الكريـم، ولا يُعَدُّ هذا الأمر كما يرون مطعنًا على كتاب الله العزيز"؛ لأنّ "في القرآن من كل لسان"، فقد نقل الثَّعالبيّ عن بعضهم أنه "ليس لغة في الدُّنيا إلاَّ وهي في القرآن".

ويبدو أنَّ السّيوطيّ من أنصار هذهِ الطَّائفة، فقد عَلَّقَ على هذا الكلام بقوله "فهذا إشارَة إلى أنَّ حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنّهُ حوى علوم الأوَّلين والآخِرِين ونبأ كلّ شيء".

واعتذرت هذه الطّائفة بأنَّ العربيّة واسعة وأنّ كلمات قليلة من غيرها في القرآن الكريـم لا تـخرجه عن كونه عربيًّا مُبِيْنًا.

3-الطائفة الثالثة:ومنهم أبو عبيد -المتوفّى سنة224للهجرة-، والـجواليقيّ-المتوفّى سنة540للهجرة-، وابن الـجوزيّ -المتوفّى سنة579للهجرة-، وغيرهم.

وقد حاولت هذه الطّائفة مِن العلماء التي يقف علـــى رأسها أبو عبيد القاسم بن سلام التّوفيق بين الرّأيين الـمتقدِّمين، يقول أبو عبيد: "والصّواب مِن ذلك عندي -والله أعلم- مذهب فيه تصديق القولين جـميعًا، وذلك أنّ هذه الـحروف أُصولـها أعجميّة كما قال الفقهاء، إلَّا أنّـها سقطت إلى العرب فأَعْرَبَتْها بألسنتها، وحوَّلتها عن ألفاظ العجم إلــى ألفاظها، فصارت عربيّة، ثـمّ نزل القرآن، وقد اختلطت هذه الـحروف بكلام العرب، فَمَنْ قال: إنّـها عربية، فهو صادق، ومَنْ قال: أعجميّة فهو صادق". ومالَ إلى هذا القول الـجواليقيّ، وابن الـجوزيّ، وآخرون.

ولـم يكن بعض علماء العربيّة مـحقّين في القول بتعريب طائفة من الألفاظ في القرآن الكريـم، من ذلك ما ذكره عِكْرِمة -المتوفّى سنة105للهجرة- بأنَّ لفظ (حَصَب) بالـحبشيّة في قوله تعالى: ((إِنَّــكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ))[الانبياء98].

إنَّ القول بـحبشيّة **(**حصب**)** لا يصمد أمام البحث؛ لأنّ كثيرًا مِن العلماء تـجاهل هذا القول قال الفرَّاء –المتوفّى سنة 207للهجرة-: "الـحصب في لغة أهل اليمن : الـحطب...والـحصب على لغة نـجد: ما رَمَيْتَ بهِ النَّارَ كقولِكَ: حَصَبْتُ الرَّجل".

ومَنْ ينظر إلى ما وردَ مِن اشتقاقات مادة **(**حَصَبَ**)** في كلام العرب يركن إلىردِّ قول مَنْ قال: إنَّـها أعجمية، ففي الـحديث: أنّ رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- (أَمَرَ بتحصيب الـمسجد**)،** وهو أنْ تُلْقَى فيه الـحَصْباء، وهي الـحصى الصِّغار.

وتفسير الآية: أنّ كلّ ما أَلْقَيْتَهُ في النَّار مِن كفّارٌ وأصنام فقد حَصَبْتَها بـهم، كما تقول : حَصَبْتُ الرَّجلَ بالـحصاء، إذا رميته بـها.

ومِن الأمثلة على ذلك أيضًا أنّ بعضهم قالإنَّ (كُوِّرَتْ) في قوله تعالى: ((إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ))[التّكوير1] هو بالفارسيّة، والأصل فيه (كُوْر بِيكَرْد).

والـحقّ أنَّ هذا اللَّفظعربيّ أصيل، وقد قال بعربيَّته معظم اللُّغويّين القدامى؛ لأنَّ (كُوِّرَتْ)عربيـّة، وقد وردَ هذا اللَّفظ على هيأة الفعل الـمضارع في قوله تعالى: **((**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**))**[الزّمر5]، واشتقاقه مِن التَّكوير، واللَّفّ، واللَّيّ، إي: يُدْخِل هذا على هذا، وهذا على هذا. والكَوْر في الكلام العربيّ دَوْر العمامة، وكلّ دَوْرٍ كَوْر، تقول العرب: كَارَ الرَّجُلُ العمامة، إذا أدارها على رأسه.

ومن الألفاظ التي لـم تتّفق أحكام اللُّغويّين في كونـها عربيّة أو أعجميّة **(**القِسْطاس**)** في قوله تعالى: **((**وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ**))**[الاسراء35]. ومعنى **(**القِسْطاس**)** هو الـميزان، فقد قيل: إنَّه عربيّ، مأخوذ من القِسْط، أي: العدل. وقيل: هو رُوميّ مُعَرَّب.

ومن ذلك أيضًا **(**الفِرْدَوْس**)،** ومعناه: البستان الذي فيه الكَرْم والأشجار الأخرى، والـجمع: فَرَادِيس، فقد ذهب بعض العلماء إلى أنَّه عربيّ مشتقّ من الفَرْدَسَة، وهي:السَّعَة**.** وذهب آخرون إلى أنّه منقول إلى العربـيّة وأصله روميّ.

ومن ذلك لفظ **(**جَهَنَّم**)،** فقد قال بعض اللّغويّين: إنَّه مُعَرَّب مِن **(**كَهنَّام**)** بالعبرانيّة، وقال آخرون: إنَّه عربيّ، سُـمِّيت به نار الآخرة؛ لِبُعْد قَعْرِها.

ومن ذلك لفظ **(**التَّنُّور**)،** وهـو عين مَاء معروف، وقيل: هو تَنُّور الـخابزة، وهــو عربيّ. وذهب آخرون إلى أنَّ هذا اللّفظ **–**التَّنُّور**-** قائم في لغتي العرب والفرس على لفظ واحد.

وإمّا أسباب التّعريب فيمكن أنْ نلخصها في النِّقاط الآتية:

1-التَّبادل التِّجاريّ**:** تدخل بسبب التَّبادل التّجاريّ إلى اللّغة أسماء البضائع التي يـحملها التّجار إلى الأراضي التي يذهبون إليها، فحين يستقبل النّاس هذه السّلع، يتقبّلون معها أسـماءها كما جاءت مِن مناطق ظهورها الأُولى.

2-العامل السّياسيّ والإداريّ**:** ينتشر التّعريب نتيجة للصّلات السّياسيّة والإداريّة بين الأُمم، كصلات العرب بالفرس، وصلات العرب بالرُّومان.

3-العامل العسكريّ**:** إنّ طول الاحتكاك بين الشّعوب الـمتحاربة ينقل إليها آثارًا مِن لغات الآخرين سواء أكان ذلك مِن لغات الـحلفاء أو الأعداء.

4-العمل الدِّينيّ**:** للعامل الدّينيّ أثر واضح في اقتراض العربيّة طائفة من الألفاظ الـمتعلّقة بالـمصطلحات والأفكار الدِّينيّة، كالسُّريانيّة والعبريّة، فالسُّريانية لغة الـمسحيّين، والعبريَّة لغة اليهود.

5-العامل الثّقافيّ**:** للعامل الثّقافيّ تأثير كبير في العربية، فقد انتقل إليها بسببهِ كثير من مفردات اللّغة الفارسيّة، واليونانيّة،والـحبشيّة، وغيرها.

ولابدّ من التّنبيه على أنّ اللّفظ الأعجميّعندما يأتي إلى لغة العرب فإنه لا يـخرج عن واحدة من الطّرائق الاتية**:**

الطّريقة الأولى: التّعريب**:** وفيهايعمد العربيّ إلى تغيير اللّفظ الأعجميّ؛ ليكون مطاوعًا للغة العرب، فَيُغَــيِّر في أصواته، أو بنائه، أو كليهما؛ ليوافق أصوات العربية وأبنيتها، كما في **(**آب ريزه**)** التي صارت **(**إِبْـرِيْـق**)،** وكما فــي **(**كِـلِـيْذ**)** التي صارت **(إِ**قْـلِــيْــد**).**

الطَّريقة الثّانية: إيـجاد اللّفظ البديل مِن لغة العرب**،** ويكون هذا اللّفظ مـختلفًا تـمامًا عن اللّفظ الأعجميّ، كما في كلمة **(**الـهاتف**)** بدلًا من **(**تِلِيْفون**)،** وكما في **(**قطار**)** بدلًا من **(**شـمندفير**)** أو **(**رَيْل**)،** وكما في (سيّارة) بدلًا من **(**أُوتُومُوبيل**)،** أي إنّ العربيّة بـحثت عمّا يناسب معنى اللّفظ الأعجميّ في كلامها فجاءت بالبديل الـمناسب.

الطّريقة الثّالثة: بقاء اللّفظ الأعجميّ على حاله كما في (موبايل)، و(إيركندشن)، و(فلورسن).واللَّفظ في هذه الـحالة يصيبه تغيير طفيف في أصواته، وهذا التَّغيير يكون بسبب العادات النُّطقيَّة في لغتنا.

ويُلْحَظ أنَّ ألفاظًا تتنازعها النُّقطتان الثَّانية والثّالثة، فالنّاس لـم تتطابق أحكامهم بإزاء ما ورد إليهم من ألفاظ أعجمية، فربّـمااستعملواالبديل العربيّ الـمقابل لهُ، وفي الوقت نفسه ربّـما استعمل آخرون ذلك اللّفظ نفسه كما ورد إليهم، ومن الأمثلة على ذلك **(**الـموبايل**)،** فمنهم مَن يقول: **(**مـحمول، أو جوّال**)** بإيـجاد البديل، ومنهم مَن يستعمل اللّفظ الأعجميّ كما هو، أي: **(**موبايل**).**

**\*الإتباع اللّفظيّ:**

يراد بالاتباع اللّفظيّ: أنْ تَتْبـَعَ الكلمةُ الكلمةَ على وزنـها ورويِّها إشباعا وتأكيدًا، نـحو: (حَسَنٌ بَسَنٌ)، و(حارٌّ يارٌّ)، و(صَقِرٌ مَقِرُ)[[2]](#footnote-2)، و(شِذَرٌ مِذَرٌ).

وقد وقف اللّغويون القدامى عند هذه الظّاهرة في أثناء مصنفاتـهم كابن دريد -المتوفّى سنة321للهجرة- في معجمه جمهرة اللّغة، وأبي عليّ القالي -المتوفّى سنة356للهجرة- في كتابه في الأمالي، وابن سيده المتوفّى سنة458للهجرة- في معجمه الـمخصّص، ومنهم مَن أفرد لـها كتابًا مستقلًّا؛ ككتاب (الإتباع) لأبي الطّـيّب اللّغويّ المتوفّى سنة351للهجرة-، وكتاب (الإتباع والـمزاوجة) لابن فارس -المتوفّى سنة395للهجرة-

وكان أبو عبيد -المتوفّى سنة224للهجرة- يذهب إلى أنّ الإتباع "إنّـما سُـمِّيّ إتباعًا؛ لأنّ الكلمة الثّانية إنّـما هي تابعة للأولى على وجه التّوكيد لـها، وليس يُتَكَلَّم بـها منفردة، فلهذا قيل: اتباع".

ويرى ابن قتيبة -المتوفّى سنة276للهجرة- أنّ الإتباع في الأصل توكيد بتكرار اللّفظ، لكنّ العرب كرهت أنْ يتطابق اللَّفظان؛ لذلك أبدلت صوتًا من أصوات اللَّفظ الثّاني بصوت آخر، قال: "وربَّـما جاءت الصِّفة فأرادوا توكيدها، واستوحشوا مِن إعادتـها ثانية؛ لأنَّـها كلمة واحدة، فغـيّروا منها حرفًا، ثـمَّ أتبعوها الأُولى، كقولـهم: (عطشان نطشان)، كرهوا أنْ يقولوا: (عطشان عطشان) فأبدلوا مِن العين نونًا".

ويـمكن تشبيه اللّفظ التّابع مـمّا ليس فيه معنى في نفسه ولايرد وحده في اللّغة بالعربة التي يـجرّها حصان، أو التي تـجرّها سيّارة، أو التي يـجرّها قطار، فالـحصان والسّيّارة والقطار يُشْبِه كلّ واحد منها اللَّفظ الـمتبوع، فكلاهـما يـجرّ تابعه إلى الـجهة التي يريدها، فالأوّل يسحب العربة إلى الـجهة التي يريدها قائد الـحصان، أو السَّـــيَّارة، أو القطار، والثّاني يوجّه التّابع إلى الـمعنى الذي يرغب الـمتكلِّم في تقويته وتأكيده عند الـمتلقّي.

ولابأس بالتّنبيه على أنّ الانسجام الصّوتيّ بين التّابع والـمتبوع في أُذن الـمتلقّي يكمن وارءه غرض مهم يرمي إليه الـمتكلِّم، فهو يسعى إلى تقوية الـمعنى وتعضيدة فقد "روي أنَّ بعض العرب سُئِل عن ذلك، فقال: هو شيء نَـتِد به كلامنا".

ولانستطيع القطع بـخلو الألفاظ التّابعة من أيّ مضمون، فليس بعيدًا أنْ تكون لـها "معان لـم تتجلَ أمام النَّاس حقائقها؛ لانتسابـها إلى لـهجات عربية شتّى".

وإذا أخذنا بالرّأي الذي يذهب إلى أنّ الكلمة التّابعة كانت في البدء لا تـحمل دلالة معينة فإننا سنسلم بأنّ مـجاورتـها للكلمة الـمتبوعة أضفى عليها معنى الكلمة الـمتبوعة بالتّدريج.

ويقع الإتباع في الأسـماء والأفعال:

وقد ذهب أبو الطّــيّب اللّغويّ إلى أنّ الإتباع الاسـمي قسمان:

الأول: أنْ يكون التّابع متّصلًا بالـمتبوع، وليس له معنى، ولا يـجيء منفردًا، نحو: (حَسَنٌ بَسَنٌ)، و(حارٌ يارٌ)، ويكثر أنْ تكون الكلمة التَّابعة مبدوءة بـميم، نـحو: (صَقِرٌ مَقِرٌ)، و(شِذَرٌ مِذَرٌ).

والثّاني: أنْ يكون التّابع متّصلًا بالـمتبوع، وله معنى، ولا يـجيء منفردًا أيضا، نحو: (عطشانُ نطشانُ)، و(شيطانٌ ليطانٌ).

وذهب أبو الطَّيِّب اللُّغويّ إلى جواز الفصل بين التَّابع والـمتبوع بالواو إذا كانا فعلين، نحو: (حَيَّاك وبَيَّاك) في قولـهم: (حَيَّاك اللهُ وبَيَّاك)، و(يَلِيق ويَعِيق) في قولـهم: (ما يَلِيق بك الـخيرُ وما يَعِيق)، في حين يرى غيره من اللّغويّين أنَّ الكثير في الإتباع أنْ يكون بغير واو العطف، والقليل فيه أنْ يكون بواو العطف؛ لذلك اختلفوا في كون (بَيَّاك) إتباعًا لـ(حَيَّاك) في حديث: أنّ الـملائكة قالت لآدم -عليه الصّلاة والسّلام-: (حَيَّاك الله وبَيَّاك)، فمعنى (حَيَّاك): سَلَّمَ عليك.

وذهب بعضهم إلى أنّ (بَيَّاك) اتباع لـ(حَيَّاك).

وأمَّا الذين لـم يقولوا بالإتباع فيها، فقد ذكروا أنّ (بَيَّاك) معناه: بَوَّأَك منزلًا عظيمًا ثـمّ خَفَّفوا الـهمزة، وأبدلوا الواو ياءً.

وقيل إنّ معنى (بَيَّاك) قَــرَّبَك، وأنشدوا:

 بَــيَّـا لـهم إذْ نَزَلُوا الطَّعاما

أي: قَرَّبَه.

وقيل إن معنى (بَيَّاك) أَضْحَكَكَ؛ لأنَّ آدم -عليه السّلام- حزن زمنًا على ولده هابيل فأَوحى الله -تعالى- إليه: (حَيَّاك الله وبَيَّاك)، أي: أَضْحَكَكَ.

واختلف اللّغويّون في كون (بِـلٌّ) إتباع لـ(حِلٌّ) في حديث العبّاس في شأن زمزم: (لَسْتُ أُحِلُّها لِـمُغْتَسِلٍ، وهي لشاربٍ حِلٌّ وبِـلٌّ)، فقد ذهب بعضهم إلى أنّ (بِـلٌّ) إتباع لـ(حِلٌّ).

وأمّا الذين لـم يقولوا بالإتباع، فقد ذكروا أنّ معنى (بِـلٌّ): شفاء، مِن قولـهم: بَلَّ مِن مرضه وأَبَلَّ.

وقيل: إنّ (بِـلٌّ) هو الـمباح بلغة حِـمْيَر.

ولايكون اللّفظ عندهم إتباعًا؛ لـمكان الواو.

**\*ظاهرة الإعراب:**

اللّغات قسمان: فثمّة لغات مبنيّة، وثـمّة لغات معربة. وأكثر اللّغات في العصر الـحديث مبنيّة، مثل: الانكليزيّة، والفرنسيّة، والتّركيّة، والفارسيّة.

أمّا اللّغة العربيّة فهي لغة مُعْرَبَة، وتُعَدّ ظاهرة الإعراب مِن أبرز الظّواهر فيها، فقد ورثت العربيّة الإعراب مِن اللّغة السّاميّة الأُم، وقد كانت اللّغات السّاميّة القديـمة كلّها مُعْرَبَة، وأشار الـمستشرق الألـمانيّ نولدكه إلى أنّ النَّبط كانوا يستعملون الضَّمَّة في حالة الرَّفع، والفتحة في حالة النَّصب، والكسرة في حالة الـجرِّ. وتدلّ النّصوص في اللّغة الأكديّة -وتشمل اللّغتين البابليّة والآشوريّة- على وجود الإعراب فيها كاملًا. وذُكِر أنَّ قانون حـمورابي (1792-1750) قبل الـميلاد الـمدوّن بالبابليّة القديـمة فيه الإعراب كما هو في اللّغة العربيّة الفصحى، فالفاعل مرفوع، والـمفعول منصوب، وعلامة الرّفع الضَّمَّة، وعلامة النَّصب الفتحة، وعلامة الـجرّ الكسرة، كما في العربـيّة. ولايقتصر الأمر على ذلك بل إنّ الـمثنّى والـجمع الـمذكّر يـماثلان في الإعراب الـمثنّى والـجمع في العربيّة، فيرفع الـمثنّى بالألف، وينصب ويـجرّ بالياء، وأمّا الـجمع الـمذكر فإنّه يرفع بالواو، وينصب ويُـجرّ بالياء.

خلاصة القول أنّ اللّغة العربيّة لـم تبتدع الإعراب إنّـما ورثته من اللّغة السّاميّة الأُم، وبـمرور الزَّمن بدأت اللّغات السّاميّة الأُخرى تفقد الإعراب شيئًا فشيئًا سوى العربيّة التي احتفظت بـهذه الـخصيصة إلى وقتنا الـحاضر.

وكان النّحاة العرب قد حاولوا البحث في الإعراب، والغرض منه، وهل له هدف مـحدّد؟

معنى الإعراب لغة: الإِبانة عمَّا في النَّفس، وهو مصدر الفعل (أَعْرَبَ)، ومعنى (أَعْرَبَ): أَبان، يقال: أَعْرَبَ الرَّجل عن حاجته، أي، أَبان عنها. فالإعراب -من حيث اللَّغة-: الإبانة وتوضيح الكلام، وهذا الـمعنى اللّغوي للإعراب هو الأصل لـمعنى الإعراب في النَّحو، "فالإعراب هو: الإبانة عن الـمعاني بالألفاظ. أَلَا ترى أنَّك إذا سَـمِعت: (أَكْرَمَ سعيدٌ أَباه)، و(شَكَرَ سعيدًا أبوه) عَلِمْتَ برفع أحدهـما ونصب الآخر الفاعلَ مِن الـمفعول، ولو كان الكلام شَرْجـًا واحدًا[[3]](#footnote-3) لاسْتَبْهَم أحدهـما مِن صاحبه".

فإذا جاء الكلام غفلًا مِن الإعراب سيلتبس الأمر على السّامع، فلا يعرف الفاعل من الـمفعول، وإذا قلنا –مثلًا-: (ما أَحْسَن زيد) غفلًا مِن الإعراب سيلتبس النَّفي، والتَّعجّب، والاستفهام، ولن يعرف السّامع إلى أيّ الأُمور رمى القائل. لكنَّنا بالإعراب نقف على الـمعنى الـمراد:

فجملة (ما أَحْسَنَ زيدٌ) تفيد أنَّ زيدًا لـم يُـحسن في عمل من الأعمال، وهذا ظاهر مِن النَّفي.

وجـملة (ما أَحْسَنَ زيدًا !) فيها دلالة واضحة على التّعجّب، وهذا لـمسناه من الإعراب.

وجـملة (ما أَحْسَنُ زيدٍ ؟) تُنْبِئ من خلال حركاتـها الإعرابـيّة عن أنّ الـمتكلِّم أراد أنْ يستفهم عن أَحسن أجزاء زيد.

وقل مثل ذلك عن جـملة (مَنْ أَسعد النّاس) فهي بغير الـحركات الإعرابيـّة على الدّال من (أَسعد)، والسّين من (النّاس) لاتنبئ عن الـمراد؛ لأنّـها مـمكن أنْ تكون سؤالًا عن الشَّخص الذي أَسْعَدَ النَّاسَ، إذا ضُبِطَتْ على ما يأتي: (مَنْ أَسْعَدَ النـَّاسَ؟). ومن الـمـمكن أيضًا أنْ تكون سؤالًا عن الشَّخص الذي يكون من هؤلاء النّاس أَسْعَدَ مِن غيره.

فالإعراب إذن هو الـحركات الـمُبَيّنة لـمعاني كلّ جـملة في اللّغة، وقد جيء بالإعراب للفرق بين الـمعاني، "فإذا أخبرنا عن الاسم بـمعنى مِن الـمعاني الـمفيدة احتيج إلى الإعراب؛ ليدلّ على ذلك الـمعنى، والـحركات تُنْبِئ عن هذه الـمعاني، فحين قالوا: (ضَرَبَ زيدٌ عَمْرًا) دلُّوا برفع (زيدٌ) على أنّ الفعل له، ودلُّوا بنصب (عمرًا) على أنّ الفعل واقع به"

هذا هو قول جـميع النّحويّين إلَّا قُطْرُبًا -المتوفّى سنة206أوبعد210- فإنّه عاب عليهم هذا الاعتلال، وقال لـم يُعرب الكلام للدّلالة على الـمعاني والفرق بينها، وإنّـما أَعْرَبَت العرب كلامها؛ لأنَّ الاسم في حال الوقف يلزمه السّكون للوقف، فلو جعلوا وصله بالسُّكون أيضًا، لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل، فكانوا يُبْطِئون عند الإدراج، فلمَّا وصلوا، وأمكنهم التَّحريك، جعلنا التَّحريك معاقبًا للإسكان؛ ليعتدلّ الكلام"، أي إنّ الغاية مِن الإعراب هو الـخِفَّة عند درج الكلام، وعليه فإنّ الـحركات على رأي قطرب جِيء بـها للسُّرعة في الكلام، والتَّخلّص من التقاء السّاكنين.

والـحقّ أنّ كون الإعراب عَلَمًا على الـمعاني هو الرّأي الـمقبول الواضح البيّن، إذ لو كانت الغاية منه الـخِفّة عند درج الكلام ما التزمته العرب هذا الالتزام، ومن أوضح الأُمور على هذا أنّه لو قرأَ أحد قوله تعالى: ((...أَنَّ اللهَ بريءٌ مِن الـمشركين ورسولُهُ))[التّوبة3] بـجرّ (رسولُهُ) لاختلّ الـمعنى وفسد، وقيل: إنَّ حادثة كهذه هي التي أدّت إلى وضع النَّحو، وقيل: إنّ أعرابـيًّا مرَّ فسمع مؤذنًا (أشهد أنَّ مـحمّدًا رسولَ اللهِ) بنصب (رسول) فصاح به: ويـحك، ماذا يصنع؟

ثـمّ إنّ أوّل حكايات ظهور اللّحن في زمن أبي الأسود الدُّؤليّ تدلّ على أنّ الإعراب له أثر في الـمعنى، ولا ينكر أحد أنّ قوله تعالى: ((إنّـما يـخشى اللهَ من عبادِهِ العلماءُ)) لو أبدلتَ فيه حركة (اللهَ) إلى الرّفع، وحركة (العلماءُ) إلى النَّصب لاختلّ الـمعنى وتغيّر إلى العكس تـمامًا. وأنّ جـملة (أكرم النّاس أحـمد) إذا كانت غفلًا من الـحركات الإعرابيّة احتملت معاني عدة، فإنْ شُكِّلَتْ نَصَّت على معنى واحد:

أَكْرَمَ النَّاسُ أَحـمدَ

 أَكْرَمَ النَّاسَ أَحـمدُ

 أَكْرِمِ النّاسَ أَحـمدُ

 أَكْرَمُ النَّاسِ أَحـمدُ

وجـماع القول أنّ جـميع النّحاة القدامى عدا قطربًا يُقِرُّون بعلاقة الإعراب بالـمعنى ودلالته عليه، فهم يرون أنّ الـحركات الإعرابيّة تدلّ على الـمعاني الـمختلفة مِن فاعليّة، ومفعوليّة، وإضافة، وغيرها. وقد أشار أبو القاسم الزّجّاجيّ -المتوفّى سنة 337- للهجرة في كتابه (الإيضاح في علل النّحو) إلى "أنّ الأسـماء لـمّا كانت تَعْتَورها الـمعاني فتكون فاعلة، ومفعولة، ومضافة، ومضافًا إليها، ولـم تكن في صورها وأبنيتها أدلّة على هذه الـمعاني بل كانت مشتركة جُعِلَت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه الـمعاني، فقالوا: (ضرب زيدٌ عمرًا)، فدلُّوا برفع (زيد) على أنّ الفعل له، وبنصب (عمرو) على (أنّ) الفعل واقع به، وقالوا: (ضُرِبَ زيدٌ)، فدلّوا بتغير أوّل الفعل، ورفع (زيد) على أنّ الفعل ما لـم يُسَمّ فاعله، وأنّ الـمفعول قد ناب منابه. وقالوا (هذا غلامُ زيدٍ)، فدلّوا بـخفض (زيد) على إضافة الغلام إليه. وكذلك سائر الـمعاني جعلوا هذه الـحركات دلائل عليها؛ ليتّسعوا في كلامهم، ويقدّموا الفاعل إنْ أرادوا ذلك، أو الـمفعول عند الـحاجة إلى تقديـمه، وتكون الـحركات دالّة على الـمعاني".

1. النّزيب**:** صوت تيس الظّباء عند السِّفاد. [↑](#footnote-ref-1)
2. ويكون في وصف الرّطب فيقال: (هذا رطب صَقِرٌ مَقِرٌ)، إذا كان منقوعًا في عسل التّمر. [↑](#footnote-ref-2)
3. نَضْدًا واحدًا،كتركيب اللَّبِنَة جنب الأُخرى، فكلّ واحدة تُشْبِه أُختها. [↑](#footnote-ref-3)